سلف للبحوث والدراسات
www.salafcenter.com

تقنياتُ الحداثيين

كشف أساليب، وتفنيد شُبُهات

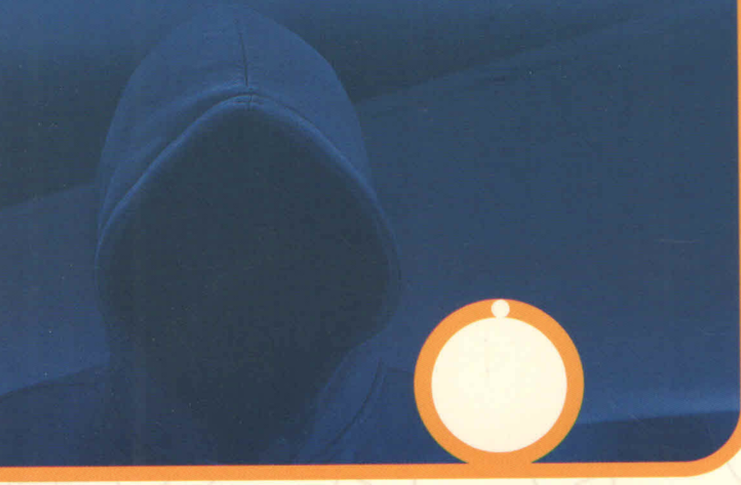

تحرير وإشراف:

د.علي بن محمد العمران   د. محمد بن إبراهيم السعيدي

دار سلف
للنشر والتوزيع

تقنياتُ الحَدَاثيِّين

كشف أساليب وتفنيد شبهات

ⓒ دار إبراهيم محمد السعيدي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السعيدي، محمد بن إبراهيم

تقنيات الحداثيين: كشف أساليب وتفنيد شبهات. / محمد بن إبراهيم السعيدي؛ علي العمران. - مكة المكرمة، ١٤٤١هـ

٢٣٦ ص؛ ١٤.٨×٢١ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٢٢٧-٧-٧

١- التوحيد ٢- العقيدة الإسلامية - دفع مطاعن أ. العمران، علي (مؤلف مشارك) ب. العنوان

ديوي ٢٤٠ ٦٦٤٨/١٤٤١

رقم الإيداع: ٦٦٤٨/ ١٤٤١

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٢٢٧-٧-٧

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى (١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م)

دار سلف للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - مكة المكرمة

البريد الإلكتروني: salafcenter3@gmail.com

الهاتف: ٠١٢٥٣٠٦٣٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

١٣٣٧

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف المرسلين، نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين. أمابعد:

تبدأ تقنيات الحداثيين من المصطلح ثم لا تنتهي عند حد، بل هي متكاثرة، ولكنها غير متجددة؛ وهنا بين أيدينا ثلاث قضايا:

القضية الأولى: بدايتها من المصطلح الذي أطلقوه علىٰ أنفسهم وروَّجوه بشكل كبير حتىٰ غدا عَلَمًا عليهم وعلىٰ فكرهم، مع أنه عند البحث نستطيع أن نخرج بمنافاتهم له، فهم لا يرتبطون بالحداثة ولا بالتحديث، بل حقيقة فكرهم ترتبط بما قبل التاريخ، فتارةً بالعهد الروماني الغربي، وتارةً بالعهد الروماني الشرقي، وتارةً بالعهد اليوناني.

فمعظم أفكارهم مرتبطة بتلك الحقب القديمة، وليس ذلك ارتباط بناء واستفادة، بل ارتباط تقمص وانتحال، بحيث إنك لا تكاد تجد نظرية من نظريات من يُسمَّون الحداثيين إلا وتجدها كاملة في فلسفات تلك العصور.

وتنحصر زيادتهم في كونهم يحاولون الإطاحة بكل تقدُّم فكري ليعيدوه إلىٰ تلك العصور.

ومع ذلك بلغ من ترويجهم لمصطلحهم أننا نجد أنفسنا

مضطرين لاستخدامه عند الحديث عنهم؛ وهي مشكلة كان لها أثر في الترويج لهذا المصطلح كعَلَم عليهم وعلىٰ فكرهم.

وهو يذكِّرني كثيرًا بمصطلح التقدُّميين الذي كان في فترة السبعين والثمانين والتسعين الهجرية يطلق علىٰ الماركسيين، مع أن الفكر الماركسي مبني علىٰ فكرة العودة بالبشر إلىٰ المجتمع المشاعي؛ وهو مجتمع وهمي لكن كارل ماركس وزميله إنجلز كانا يصران علىٰ أن المشاعية كانت هي طبيعة المجتمع البشري قبل نشوء الطبقات وظهور الأديان.

كيف يكون تقدُّميًّا وهو يعود بالبشرية إلىٰ تلك العصور السحيقة؟! لا يوجد جواب مقنع سوىٰ أن المصطلحات لا تصنع لتطابق المضمون، بل تصنع لجذب التائهين وخديعة المثقفين، وهذا ما حصل تمامًا مع مصطلح الحداثة.

القضية الثانية: نجد أن تقنيات الحداثيين متكاثرة؛ أي: أنها تدخل دون حياء في كل دين وكل ملة وكل نحلة، فأصل الفكر الحداثي هو الشك في كل شيء، فهو يشكك في الوجود وصانعه، ويشكك في الرسالات والشرائع، ومع هذا تجد الحداثي اليهودي يروِّج لفكره من خلال دينه الذي هو أساسًا يشك فيه بل ينتقده، كما كان حال سبينوزا مثلًا، والحداثي النصراني يُروِّج للحداثة من خلال النصرانية مع أنه لا يؤمن بها، وربما كان المثال الصارخ في هذا هو فولتير الذي تارةً تراه

ملحدًا لا يؤمن بالدين، ويستخدم النظريات الفيزيائية لدعم فكرة الإلحاد كما صنع مع قانون الجاذبية لإسحاق نيوتن، وتارةً يُروج لهدم الكنيسة عبر إعادة تفسير قيمها.

وأظن- ولست على يقين- أن الحداثي الهندوسي والبوذي يفعل الشيء نفسه، وقد رأينا شيئًا من ذلك عند دعاة الفلسفة الشرقية الذين أصبح لهم حضور عالمي وزيارات للعالم الإسلامي.

والحداثي المسلم يفعل الشيء نفسه اليوم، ويستدل بالكتاب والسنة والقياس والإجماع بطريقة حقيقتُها هدمُ الاستدلال بهذه المصادر.

القضية الثالثة: أن أدلتهم المتكاثرة غير متجددة، فالحداثيون المنتسبون للإسلام لا يأتون بجديد في استدلالاتهم الهدامة، فأنت لا تكاد تبحث عن فكرة يستعملونها في الاستدلال بالشريعة ومآلاتها تهدم الشريعة إلا وتجد أنها قد استخدمت سابقًا من قبل ابن سينا أو الفارابي أو إخوان الصفا أو غيرهم.

ومع ذلك يُصرون على وصف أنفسهم بكونهم حداثيين!

وسوف يجد القارئ في هذه الأضابير التي بين يديه عرضًا ونقدًا لتقنيات الحداثيين في التعامل مع الشريعة، ومناقشة لشبهاتهم بلغة سهلة ميسرة، كاشفة إن شاء الله عن الحقيقة.

د. محمد بن إبراهيم السعيدي

(١)

من تقنيات الحداثة

الجُمُودُ وَالرَّجْعِيَّةُ

❁ الغرب بين الجمود الكنسي والتيه العلماني:

نشب خلافٌ بين الملك والبابا في بعض المسائل الإصلاحية، فضاق الملك ذرعًا بتدخل البابا في بعض تعييناته، واتَّسعت هوة الخلاف بينهما حتىٰ وجَّه البابا رسالة شديدةَ اللهجة إلىٰ الملك في أواخر عام ١٠٧٥م، هدَّده فيها بالحرمان وخلعِه من منصب الإمبراطورية إن لم يقم بالتوبة والخضوع، فردَّ الملكُ من جانبه بعقد مجمع لأساقفة إيطاليِّين معارضين للبابا اتخذوا فيه قرارًا ببطلان انتخابه، وطالبوه بترك الكرسي البابوي، وقام البابا بدعوة الأمراء الألمان الموالين له إلىٰ الخروج علىٰ طاعة الملك، ولم يكن أمام الملك إلا أن يتجنب محاكمة العامة في ألمانيا، فسافر إلىٰ إيطاليا مُعلنًا توبته في ديسمبر عام ١٠٧٦م، ووصل إلىٰ قلعة كانوسا في توسكانا، وظل واقفًا أمامها مدة ثلاثة أيام حتىٰ قابل البابا بوضعٍ مهين، وحصل

منه علىٰ الغفران وعلىٰ رضا البابا العظيم عام ١٠٧٧م!(١).

هذه قصة واحدة من مئات قصص الطغيان الكنَسيِّ النصرانيِّ الذي ساد في العصور المظلمة كما تسمَّىٰ، ومن أفظع صور الطغيان وأقبحها ما يصدر ممن يتزيىٰ بزي القديس، ويتسمىٰ برسول السلام، ويجعل شرعه وشعاره: (من لطمك علىٰ خدك الأيمن فأدر له خدك الآخر)، فما أشنع الطغيان من هؤلاء!

ذلك أنه تبعًا لاضطهاد أتباع المسيح من الروم الوثنيين ظل الحواريون يشرحون الإنجيل والتعاليم لمن دخل في دينهم مشافهة؛ لصعوبة اللغة وملابسات الدين الجديد في ظروف الاضطهاد، ولم يكن أحد من العامة يستطيع أن يقرأ الأناجيل بسبب ذلك، ودار الزمان واحتفظ رجال الكنيسة بحق قراءة الإنجيل وشرحه للناس، وتوارثوه، فأصبح حكرًا عليه، ولا محل لنقدهم أو التباحُث معهم، فضلًا عن معارضتهم، وبات بيدهم مباركة من شاؤوا وما شاؤوا متىٰ شاؤوا، فلن ينبس أحد ببنت شفة حيال ما تفعل الكنيسة، فطغت واضطهدت واستبدت.

---

(١) ينظر: قصة الحضارة، ول ديورانت، وموقع المعرفة، صفحة هنري الرابع، الإمبراطور الروماني المقدس.

وبات بيدها حق الغفران والحرمان، فتغفر لمن تشاء، وتعذب من تشاء، وأنشأت للمهرطقين- المخالفين للكنيسة والمشككين في تشريعاتها من نصارىٰ وغيرهم- رعب العصور الوسطىٰ وهي محاكم التفتيش: سجون مظلمة تحت الأرض، بها غرف خاصة للتعذيب، وآلات لتكسير العظام وسحقه، وكان الزبانية يبدؤون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيًّا، حتىٰ يهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة والدماء الممزوجة باللحم المفروم، وكان لدىٰ المحكمة آلات تعذيبية أخرىٰ، منها: آلة علىٰ شكل تابوت تثبت فيه سكاكين حادة، يلقون الضحية في التابوت ثم يطبقونه عليه، فيتمزق جسمه إربًا إربًا، وآلات كالكلاليب تغرز في لسان المعذب، ثم تشد فتقصه قطعة قطعة، وتغرز في أثداء النساء حتىٰ تتقطع كذلك.

◆

❁ مقولة غوستاف لوبون عن الطغيان الكنسي:

يقول غوستاف لوبون: (يستحيل علينا أن نقرأ دون أن ترتعد فرائصُنا من قصص التعذيب والاضطهاد التي قام بها المسيحيون المنتصرين علىٰ المسلمين المنهزمين، فلقد عمدوهم عنوة، وسلموهم لدواوين التفتيش التي أحرقت منهم ما استطاعت من

الجموع، واقترح القس بليدا قطعَ رؤوس كل العرب دون أي استثناء ممن لم يعتنقوا المسيحية بعد، بما في ذلك النساء والأطفال، وهكذا تم قتل أو طرد ملايين عربي)(١).

* * *

❂ نتوءات التحرر والتيه العلماني:

وكردة فعل طبيعية لمقاومة هذا الاضطهاد والقهر والاستبداد قامت الثورة ضد الكنيسة وضد الدين ورجاله، ليتحرروا من قيود الظلم والطغيان والاضطهاد لجنس الإنسان، فكانت مشكلة المُشكلات عندهم هو التخلص من القمع والاستبداد والطغيان باسم المرجعيات والثوابت الجامدة، والتحرر من القيود الكنسية والإقطاعية، فقرروا القطيعة بكل ما هو ماضٍ وكل ما هو تراثيّ وكل شيء قديم، وبدأت رحلة البحث عن البديل واستكشاف الجديد، فجربوا الخضوع لأوامر العقل وبرهانياته، وتارةً عبدوا الحس وانصاعوا لمقتضياته، ولكن باءت جميعًا بالفشل والبوار، فكانت النهاية أن اعترفوا بعجزهم عن الحصول علىٰ مرجع، وقرروا أن لا ثوابت، وشككوا في كل شيء، وأنكروا كل قضية مطلقة نهائية،

---

(١) حضارة العرب، غوستاف لوبون، نقلًا عن موقع المعرفة، موضوع: محاكم التفتيش.

فلا حس ولا عقل ولا مرجع ولا ثوابت، بل كل شيء متغير، وكل شيء نسبيٌّ.

إذن تبني الإنسان الغربي فكرة الحداثة القائمة على الديناميكية الدائمة والحركة المستمرة والتغير الأبدي، دون توقف ودون مرجعيات ودون ثوابت، ولقد استطاع الإنسان الغربي أن يتقدم البشرية بمفاوز في عالم البحث والصناعات والاكتشافات والتكنولوجيا، وسبق غيره حين قامت هذه العلوم كردة فعل ومقاومة للنظام الخرافي الأسطوري الذي أقامته الكنيسة وحاكت خيوطه، ومنعت البحث والتعلم واكتشاف الجديد والعالم الآخر، وألزمت الشعوب بمرجعياتها وخرافاتها التي ابتدعتها في مجامعهم ولمصالحهم.

وهكذا أصبح الرجل النصراني تائهًا في بيداء قاحلة، محتفيًا بالصيرورة المستمرة غير المستقرة، لا مَعلم فيها فيهتدي به، ولا لوحات إرشادية توضح له الطريق، ولا نجم قطبي يبين له الشمال من الجنوب، ولا شمس في حياته ليعرف الشرق من الغرب. فالأصل الأصيل الثابت عندهم هو التغير والتحول المستمر، فكل شيء داخل في عباءة الصيرورة، وكل شيء يمكن أن يُحدث غدًا.

ولكن القصة لم تنته عند هذا.

◆

الحداثيُّون العرب وعباءة الحداثة الضيقة:

لقد تلقف بعض المسلمين هذا المصطلح، وحاولوا التمظهر بعباءة الحداثة، ليخرجوا بمظهر جديد عصري، وفي هذا المقال ننقب عن واقع الحداثة فيمن ينتسب إليها من المسلمين؛ لننظر هل الأمر يختلف أم لا؟

في واقع الأمر إن كان الإبداع والاختراع والتغير والتحديث والتحول المستمر هو أصل الحداثة في الفضاء الغربي، فإن الجمود والرجعية والانغلاق علىٰ التراث السابق هو ما نلمسه عند البحث عن واقع المنتسبين إلىٰ الحداثة من العرب، ورغم ذلك نجد منهم الاتهام بالجمود والتخلف والرجعية للإسلام وأهله، فكل من اعتنق فكرًا وانبهر به وخضع له واعتنق نظامه المعرفي وانعتق عن القرآن ونظام الإسلام وراح ينسب الإسلام وأهله إلىٰ الحشوية والظلامية والتخلف والرجعية والتقليد والجمود وغيرها من مكاييل الاتهامات والنقائص.

◆

أركون والجمود والرجعية:

ولقد واصل الحداثيون هذا المشروع الإعلامي الذي قام به أعداء الإسلام منذ بزوغ فجره، فنجد أركون يقول: (إنه لدىٰ فكر معاصر متعود اتباع نوع معين من البرهان والإيحاء والوصف والسرد في

نصوص يجري إنشاؤها بحسب مخطط صارم، فإن القرآن مدعاة للنفور بعرضه غير المنظم، واستخدامه غير المعتاد للخطاب، ووفرة إيحاءاته الأسطورية والتاريخية والجغرافية والدينية، وكذلك بتكراره وانعدام ترابطه، واختصارًا بمجموعة كاملة من الرموز التي لم تعد تجد البتة دعائم ملموسة، سواء في طرق تفكيرنا أم في محيطنا الطبيعي والاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي)(١).

فأركون هنا يواصل ذات المشروع الإعلامي التشويهي الذي مارسه أعداء الإسلام من قبل، ولكنه في نصه هذا في الحقيقة ليس سوىٰ جامد رجعيٍّ إمعة يردد ما يقوله المستشرقون فحسب، فإن كان القرآن مدعاةً للنفور واتباع أتباعه لنوع معين كما يزعم أركون، فإن منهج أركون وخضوعه الكامل واستسلامه التام لأقوال المستشرقين أشد نفورًا، وتسليمه لكل ما يقولونه أشد فجاجة!!

فهذا القول الذي نسبه لنفسه ليس سوىٰ اقتيات علىٰ مزبلة من مزابل المستشرقين، وإن شئت فقارن بينه وبين قول (بلاشير) المستشرق الفرنسي إذ يقول: (فأمام هذا النص الشائك بصعابه، الكثير من الغموض، المدهش بأسلوبه الإيجازي الذي يغلب عليه التلميح،

---

(١) الوحي، الحقيقة، التاريخ: نحو قراءة جديدة للقرآن (ص: ٣٤).

نتوقف ملتمسين الفكرة الرئيسية التي تصل فيما بينها بمنطق كامل قصصًا وشروحًا، يصعب الكشف عن ترابطها)⁽¹⁾.

إن (بلاشير) الأعجمي والمستشرقين بأجمعهم قد يُلتمس لهم العذر في عدم فهم المعاني والأساليب البلاغية والترابط المنطقي في القرآن العربي؛ ذلك لعجمتهم وبعدهم عن مفاهيم الإسلام ومضامينه، ولكن ما عذر من ينتمي إلىٰ الإسلام وإلىٰ العربية ويلبس لباسها ثم يدَّعي أن القرآن العربي الذي أعجز فطاحلة العربية غامضٌ وغير مترابط؟! ولماذا العبودية والخضوع والتسليم للمستشرقين إلىٰ حد أن يقول: (نعلم أن القرآن يظل مستغلقًا وغير مفهوم للمؤرخين أو المثقفين الأكثر تخصصًا وتبحرًا في العلم، فما بالك بجمهور المؤمنين؟! ولا أحد يفكر في شرحه أو تفسيره بناءً علىٰ المناهج الحديثة من أجل تقريبه من الأذهان والعقول)⁽²⁾؟!.

لا أظن أننا بحاجة هنا إلىٰ أكثر من علامات التعجب.

قد يقول القائل إن هذه واقعة عين أو حالة خاصة وموقف شاذٌّ، ولكن النظر في تقريرات الحداثيين وتصريحاتهم يبعد عنا هذا

---

(١) نقلًا عن (القرآن الكريم والقراءات الحداثية)، د. الحسن العباقي (ص: ٥٣).

(٢) قضايا في نقد العقل الديني (ص: ٥٩).

الاحتمال، فأركون لا يترفع عن أن ينسب إلىٰ كلام الله ﷻ - الذي تحدىٰ به العرب والعجم والجن والإنس أن يأتوا بمثله - الشذوذ اللغوي والاضطراب والتنافر، مع التشكيك في وجود أيد خفية مست نصوصها وألفاظها في دياجير ليال مظلمة!

ليس ذلك بدعًا أو اختراعًا من لبّ فكره وإبداعات خياله الاستنباطي، ولكنه ليس سوىٰ التسليم والخضوع للنص الاستشراقي، والعبودية والجمود علىٰ وحي المستشرقين، والعجب أن يصرح بذلك حيث يقول وهو يضع ملاحظاته علىٰ آيات سورة الكهف: (نلاحظ أن الآيات من ٩ إلىٰ ٢٥ تشكل الوحدة السردية الأولىٰ، وهي الحكاية الشهيرة للسبعة النائمين، والمدعوة هنا باسم: أهل الكهف، نلاحظ أن أداة الانفصال (أم) توحي بوجود علاقة بالجزء السابق من البديل التناوبي المعدوم في الواقع (...)، وكما نقل إلينا يبدو أن نص الحكاية هذه واجه تحويرات أو تغييرات، كان ريجيس بلاشير قد كشف بوضوح بوساطة التنفيذ الطباعي عن نسختين متوازيتين للآيات من ٩ إلىٰ ١٦، يضاف إلىٰ ذلك أن الآية ٢٥ تجد مكانتها بالأحرىٰ بعد آية ١١، لولا أنها تنتهي بالقافية (عا)، هذا في حين تشتمل مجمل الحكاية علىٰ آيات مقفاة بـ (دا)، وقد كشفوا في الآية ذاتها عن شذوذ لغوي، هو كلمة (سنين) الواردة بعد عبارة (ثلاث مئة) بدلًا من سنة

(...)، وهذا يجعلنا نفترض الكثير من الفرضيات بشأن شروط تثبيت النص أو أحواله كما يقول بلاشير)(١).

ويزيد النص فجاجة تصريح شارح النص هاشم صالح بأخذهم هذه الأفكار عن المستشرقين وتسليمهم لها وتبجحهم بها حيث يقول: (ألا يعني ذلك أن الآيات مقحمة على السورة، ولا علاقة لها بها، كما تقول نظرية نولدكه؟)(٢).

إن أركون وشارحه هنا يصرحان بأن بلاشير ونولدكه هما أبواهما في كل ما يقولان، فهل كان الأخذ عن السلف وجهابذة الإسلام مدعاة للنفور، والاقتيات من مزابل المستشرقين وأعداء الإسلام مدعاة للاحتفاء والتحرر؟!

ولتقارن- أخي القارئ الكريم- بين ما يقوله أركون وبين ما يقوله بلاشير لتقف بنفسك على هذا الجمود على النص الاستشراقي والدوغمائية الفجة، يقول بلاشير وهو يتكلم عن التدوين في العهد النبوي: (وعلى أي حال فإن هذا التدوين كان جزئيًا ومثارًا للاختلاف، كما كان متخلفًا على الأخص بسبب عدم ثبات المواد والطرائق

---

(١) القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني (ص: ١٤٨).

(٢) القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني (ص: ١٤٨)، الهامش.

المستعملة لذلك التدوين)، ويقول: (وقد جرت خطوة حاسمة بعد عشرين عامًا، إذ أقبلوا في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٦٤٤-٦٥٦) علىٰ جمع نص جديد)(١).

وقارن هذا بقول أركون: (صحيح أن النبي ﷺ كان قد أمر بتدوين بعض الآيات، وبعد موته بسنوات جمع الخليفة عثمان الناس علىٰ مصحف واحد، وهو المصحف الأم أو المصحف العثماني)(٢).

ويقول بلاشير في نص آخر: (في مطلع القرن العاشر رفع في بغداد اثنتان من الدعاوىٰ، كانت نتائجهما بالغة علىٰ علماء، كان من بينهم ابن شنبوذ، الذي ذهب حتىٰ الادعاء بأن له حقًا في تعديل نص عثمان آخذًا في الحسبان الروايات المختلفة ذات المصدر الشيعي، وفي النهاية جرت التسوية بإقرار مجموعة من القراءات السبع القانونية (...)، وهكذا صار مقبولًا لدينا أن نتكلم عن نص قانوني للمصحف، كان قد وضع، واعتمد نهائيًا في منتصف القرن العاشر)(٣).

◆

---

(١) القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته، وتأثيره (ص: ٢٩).

(٢) العجيب والغريب في إسلام العصر الوسيط (ص: ٢٤-٢٥).

(٣) القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته، وتأثيره (ص: ٣٤).

۞ أركون: النص القرآني لم يعتمد نهائيًا إلا في القرن السابع!!

لعلنا نقارن أخي القارئ نص بلاشير السابق بقول أركون: (تلك النسخة الرسمية التي تشكلت في ظل الخليفة عثمان، والتي ثبتت نهائيًا بعد القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي)(١).

يقول د. الحسن العباقي: (إن القول بعدم استواء النص القرآني إلا بعد القرن الرابع الهجري من أضعف ما قيل عن قضية التدوين، وحتى المستشرقون الذين كانت كتاباتهم طافحة بالعداء للإسلام والمسلمين، وبعيدة كل البعد عن العلمية وإنصاف الخصوم، ليس بينهم بحسب ما أمكننا الاطلاع عليه من يصرِّح بأن القرآن ظل يتناقل شفهيًّا، ولم يكتب له الجمع والتدوين إلا بعد أربعة قرون من نزوله!

وهذا الرأي يخلق ارتباكًا واضحًا في تناول أركون لقضية الجمع والتدوين؛ لأنه إذا أمكن الجمع بين قوله بحدوث تدوين جزئي في حياة الرسول ﷺ وآخر كليّ إبان حكم الخليفة الثالث، فكيف يرفع الاضطراب الذي يحدثه القول: إن التثبيت الحرفي والكتابي كان بعد القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي؟ خاصةً أنه لم يأت بأي دليل

---

(١) القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني (ص: ١١٩).

عقلي ولا نقلي علىٰ دعواه، وحتىٰ تلك المرويات التي طالما حام حولها لا تسعفه.

تساءلنا كثيرًا عن المرجع الذي يمكن أن يكون عمدة أركون فيما ذهب إليه، وبحثنا في الكثير من المصنفات التي اهتمت بتاريخ القرآن وعلومه، فلم نجد في شبهات المتقدمين ما يحيل علىٰ القرن الرابع الهجري زمنًا للتثبيت النهائي للقرآن، وبعد تولية الوجهة إلىٰ كتابات المستشرقين فوجئنا باقتيات أركون في هذه الدعوىٰ علىٰ مائدة المستشرق ريجيس بلاشير)(١).

وفي موضع آخر نجد أركون يعتد بالخلاف الشيعي في جمع القرآن، ليس لدليل عنده، اللهم إلا أن آباءه المستشرقين اعتمدوه، يقول: (ينبغي أن أوضح هنا أن الشيعة قد أطالوا المناقشات في الشروط التي جرىٰ فيها جمع العبارات النصية القرآنية وبلورة المصحف وإغلاقه)(٢).

ويقول أركون في موضع آخر: (إن المكانة الأرثوكسية اللاهوتية للوحي كما قد نطق به النبي وجمع فورًا أو لاحقًا في المصحف

---

(١) القرآن الكريم والقراءات الحداثية (ص: ١٢٩).

(٢) الفكر الأصولي واستحالة التأصيل (ص: ١٦٢).

بالإشراف الرسمي للخليفة عثمان بن عفان لا يمكن أن تكون موضوعًا للدراسة أو مادة للتحري النقدي، فهذه المكانة محمية من الإجماع الكوني لكل المسلمين منذ أن كانت الطائفة الشيعية الإمامية والطائفة السنية قد توصلتا إلىٰ اتفاق بعد مناقشات طويلة وصراعات عنيفة في صحة المصحف)[١].

ودونك نصوص بلاشير لتقف على حقيقة الانغلاق الحداثي والجمود والتبعية للمشروع الاستشراقي:

يقول بلاشير: (إن الاجتهادات المتعلقة بشرعية الخلافة والتي أحدثت حركة انشقاق الشيعة قد أثارت انفعالات دينية علىٰ تعديل نصوص قرآنية قديمة، كالنص الذي ينسب إلىٰ ابن مسعود (...)، وقد بقي ما يشهد علىٰ وجوده في الكوفة حتىٰ القرن العاشر)[٢].

ويقول: (أما الشيعة الإمامية فقد امتنعوا عن الغلو في هذه الهجمات، وكفوا بحكمة علىٰ ما كابد المصحف من تحريف)[٣].

◆

---

(١) القرآن من التفسير الموروث إلىٰ تحليل الخطاب الديني (ص: ١٢).

(٢) القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته، وتأثيره (ص: ٣٢).

(٣) القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته، وتأثيره (ص: ٣٦).

الجابري والجمود والرجعية:

ولعلنا نقلب النظر بعد إلىٰ الجابري حين يزعم أن القرآن وتفسيره خضع لتقلبات سياسية، وترتيبه أيضًا نابع عن آراء شخصية مزاجية، حيث يقول: (لقد توقفنا بعض الشيء مع الرواية التي وضعت للآية المذكور لننبّه إلىٰ أن التفسير والحديث قد تأثرا كثيرًا بالصراعات السياسية، وأن فهم القرآن لم يكن مقلوبًا بسبب اتباع المفسرين ترتيب المصحف دون ترتيب النزول فحسب، بل كان مقلوبًا كذلك من حيث إن المفسرين كانوا يعتمدون- عن قصد أو عن غير قصد- روايات وتأويلات بعدية، متأثرة بالصراعات التي حدثت في ظروف بعيدة كل البعد عن العصر النبوي)⁽¹⁾.

فدعوىٰ كون ترتيب القرآن لأغراض خاصة دون اعتبار علمي موضوعي قد صوبت نحوه سهام كثير من المستشرقين، وكرسوا حياتهم وجهودهم لإعادة ترتيب السور حسب ما يرون، فبعضهم رتبها بأسباب النزول، وآخرون اعتمدوا علىٰ أساليب القرآن حسبما فهمته أذواقهم، فهذا مشروع استشراقي جذوره وثماره، وليس شاذًّا من تكلم عنه؛ ولذا نجد الحداثيين يباركونه ويرددون ما قرره آباؤهم وأساتذتهم، ومن أولئك المستشرقين (هيوبرت غريم) و(وليم موير)

---

(١) فهم القرآن الحكيم (٢/ ٢٣١).

و(ويل) و(ديرنبرج) و(تيودور نولديكه) و(شفالي) و(هيرتوج هيرشفيلد) و(رودويل)، و(بلاشير) و(ريتشارد بل)(١).

فلم يأت الجابري في الحقيقة بجديد حين وجه سهامه علىٰ ترتيب سور القرآن، بل هو مقدس للنص الاستشراقي فحسب، حتىٰ أصبح من هوس أركون أن يحلم بإيجاد نسخة مرتبة بالترتيب الاستشراقي المزعوم حيث يقول: (وإذا ما نظرنا إلىٰ المصحف كما هو عليه حاليًّا، فإننا لا نستطيع أن نطبع كلية النص طبقًا للترتيب الكرونولوجي، أي: الزمني المتسلسل، لما أدعوه أنا شخصيًّا: الوحدات النصية المتمايزة، وقد سخرت أدبيات هائلة لهذه المسألة من العلماء المستشرقين، وينبغي أن يستمر البحث إذا كان هناك أي أمل في العثور علىٰ مخطوطة موثوقة أكثر قدمًا من النسخة التي نمتلكها حاليًّا)(٢).

وأما القضية الأخرىٰ التي طرقها الجابري في النص السابق وهي قضية خضوع التفسير القرآني لتلاعب الأيدي الخفية تبعًا للنزاعات السياسية، فلا يخفىٰ علىٰ مطلع أنها من ابتداعات المستشرقين ومشاريعهم، يقول جولد زيهر: (أخبار الروايات التي تبدو في قالب أبعد ما يكون عن الريبة حتىٰ في سيرة الرسول ومغازيه وفي تاريخ الإسلام

---

(١) آراء المستشرقين حول القرآن الكريم، لعمر رضوان (ص: ٤٩٢).

(٢) القرآن من التفسير الموروث إلىٰ تحليل الخطاب الديني (ص: ٣٨).

القديم تواري في طياتها ميول الأحزاب والاتجاهات المختلفة، وآمال الطبقات المحلية المتنوعة في الأمة الإسلامية الناشئة)(١).

◆

هل الطعن في العلماء اختراع حداثي؟

أضف إلىٰ ما سبق من القضايا قضية الهجوم علىٰ العلماء، والنيل منهم والطعن في موضوعيتهم، خاصةً الرموز الذين سدُّوا ثغرات كبيرة في الأمة الإسلامية، وكانوا حصنًا حصينًا دون نيل الأعداء من الدين، ووصول أيدي المحرفين إلىٰ شرعنا العظيم، فهذا محمد عابد الجابري يقول عن الشافعي (٢٤١هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): (فإن الشيء الذي لا يقبل المناقشة هو أن الشافعي كان بالفعل المشرع الأكبر للعقل العربي)(٣)، والمقصود بالعقل العربي هنا: العقل الإسلامي.

ويلخص حسن حنفي موقف نصر أبو زيد من الشافعي فيقول: (والشافعي باستمرار مجرح ومخون ... فهو أمويٌّ، سلطويٌّ، قرشيٌّ، عروبيٌّ، مناهض للعقل والاجتهاد، باحث عن عمل، وربما مرتزق

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة: عبد الحليم النجار (ص: ٨١).

(٢) ينظر: موقف الاتجاه الحداثي من الإمام الشافعي د. أحمد قوشتي.

(٣) تكوين العقل العربي (ص: ٦٧).

يريد أن يقبض ثمن تأييده للأمويين)⁽¹⁾.

ويقول نصر حامد أبو زيد: (الفقيه الوحيد من فقهاء عصره الذي تعاون مع الأمويين مختارًا راضيًا خاصةً بعد وفاة أستاذه الإمام مالك ابن أنس (١٧٩هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي كان له مع الأمويين موقف مشهود بسبب فتواه بفساد بيعة المكرَه وطلاقه، وموقف الإمام أبي حنيفة (١٥٠هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرافض لأدنىٰ صور التعاون معهم- رغم سجنه وتعذيبه- تكشف إلىٰ أي حد بلغ رفض الفقهاء لعصبية ذلك النظام ولممارساته القمعية ضد جماهير المسلمين، إلا أن يكونوا من مؤيديه وأنصاره بشكل مباشر)⁽²⁾.

ولسنا هنا في محل مناقشة هذه الافتراءات، وإنما مقصودنا التنبيه علىٰ تبعيتهم للمستشرقين، ولكن يكفينا ردًّا علىٰ هذا أن الإمام الشافعي لم يولد في عصر الأمويين أصلًا حتىٰ يتعاون مع خلفائهم!!

ويدعي علي مبروك أن الشافعي لم يكن العلم في قاموسه إلا وسيلة من وسائل الربح المادي، وطريقًا من طرق جمع الدراهم والدنانير، ومن ثم قرر ذاتية الشافعي في بحثه وكتاباته، وأن الدافع

---

(١) حوار الأجيال (ص: ٤٦٦).

(٢) الإمام الشافعي (ص: ١٦).

الأول له في جهوده هو حظوظ نفسه فيقول: (إن الشافعي قد أبىٰ إلا أن يجعل من نفسه صاحب رسالة بالمثل، وذلك حين مضىٰ يمنح نصه المهم في الأصول اسم: الرسالة)⁽¹⁾.

وفي الحقيقة هذه الاتهامات للإمام الشافعي ليست من بنات أفكار الحداثيين، بل هي كسابقاتها، فهم يلوكون بألسنتهم ما خلَّفه المستشرقون من فضلات، وليتهم لاكوها في خفاء وستروا علىٰ أنفسهم، فهذه الشناعة في النقد إلىٰ درجة الدخول في النوايا والبواطن ليس إبداعًا من إبداعاتهم، كما أن اتهام الشافعي بالذاتية في علمه وبحثه معروف في نعيق المستشرقين، يقول بروكلمان: (مذهب الشافعي لم تكتب له الغلبة لا في الحجاز، وهو موطن أسرته؛ حيث كان لتلامذة مالك شأن كبير، ولا في العراق حيث كانت السيادة لتلامذة أبي حنيفة، ومن هنا حاول أن يضمن لنفسه منطقة نفوذ جديدة في مصر)⁽²⁾.

ومن هنا يتبين لنا أن التيار الحداثي الذي لا يفتأ يصم أهل العلم الحق بالجمود والتخلف والرجعية هو أولىٰ بأن يوصم بذلك؛ إذ هم جامدون علىٰ مزابل متبوعهم من المستشرقين، متخلفون رجعيون لا تفتح شهيتهم إلا علىٰ عفاناتٍ أكل عليها الدهر وشرب.

---

(١) ما وراء تأسيس الأصول (ص: ١١٣).

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: منير البعلبكي وزميله (ص: ٢٠٤).

الخاتمة:

تنبه المفكر الفرنسي روجيه أرنالدز إلىٰ هذا الجمود والتخلف الذي تحدثنا عنه حيث يقول: (ما آخذه علىٰ الفلاسفة العرب المعاصرين أنهم تأثروا كثيرًا بالفكر غير العربي، إنهم يترجمون كثيرًا، وهذه ظاهرة لافتة مهمة، فمن الضروري أن يلم الفلاسفة العرب المعاصرون بالفلسفات غير العربية، لكن غالبًا ما تشكل هذه الترجمات لهؤلاء المفكرين المادة الجاهزة التي يعتمدونها لبناء فكرهم الخاص، وآمل أن يؤسس الفلاسفة العرب فلسفة عربية خاصة، دون أن ينغلقوا علىٰ الفلسفات غير العربية، وأن يخلقوا فكرًا عربيًا أكثر استقلالًا انطلاقًا من تراثهم وتقاليدهم الخاصة، إن لديهم تراثًا غنيًّا دينيًا وصوفيًا وفكريًا، وأعني بالطبع الفلاسفة المسلمين، إذًا يجب أن ينطلقوا من هذا التراث الرائع؛ ليبحثوا علىٰ ضوئه في القضايا المطروحة الآن من ظروفها المكانية والزمانية، وتحمل خصائصها المميزة إنما تصب في مجموع الفلسفات المتناغمة)(١).

---

(١) جريدة النهار البيروتية من مقابلة مع المفكر الفرنسي روجيه أرنالدز، بتاريخ ٦/ ٤/ ١٩٨٥م، نقلًا من كتاب: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف (ص: ٣٤٨).

فيا للعجب! كيف يتهم الحداثيون علماء الإسلام بالتخلف والرجعية والانغلاق ولم تكد ترىٰ أعينهم سوىٰ نصوص هؤلاء المستشرقين؟!

فمن المنغلق؟! ومن الرجعي؟! ومن المتخلف؟! يا أولي الألباب(١).

◆

---

(١) إعداد: عمار بن محمد أعظم.

(٢)

من تَقْنِيَاتِ الحَدَاثَةِ

النَّظَّارةُ المُحَدَّبَةُ

المتابع للمنتج الفكري الحداثي يستطيع بسهولةٍ ملاحظة المحاولات الدؤوبة التي يبذلها الحداثيون العرب؛ للولوج عبر الكتابات الفكرية بحمولة مصطلحية ومجموعة مفاهيم خاصة لكل واحد منهم، والعمل علىٰ اصطحاب تلك المفاهيم وضخها في مصنفاتهم بشكل استعراضي خاص، وبشكل ربما يخالف قواعد اللغة والمعاني الأساسية المعروفة من تلك الكلمات؛ لخلق نوع من الإبهار الهوليودي، أو إن شئت فقل: (حرب المصطلحات)؛ حتىٰ ينقدح في ذهن المتلقي ضخامة تلك المعاني الغامضة، ومن أجل بث روح الهزيمة الثقافية أمام تلك العبارات غير المطروقة في اللسان العربي.

ومن التقنيات- وإن شئت فقل: الحيل- التي يستخدمها الحداثيون لترويج منتجهم وتكريس أيديولوجياتهم تقنية تحميل النص ما لا يحتمله، أو تقنية النظارة المُحَدَّبَةُ، والتي ترىٰ من خلالها النصوص كما تحب هي أن تراه، لا كما هو النص في حقيقته وواقعه، وفي هذه

الورقة سنسلط الضوء على هذه التقنية أو الحيلة؛ ضاربين بسهم في كل من التراث الاستشراقي والتراث البدعي؛ إذ هم قدوة الحداثيين وسلفهم.

فاللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه.

◆

تمهيد:

اتركوا الناس ودنياهم، يهنؤون بها، لا نريد سماع مواعظكم وتخويفكم بالآخرة!!

أنتم تحدثوننا عن الموت والقبر والعذاب والويل والهلاك ونحن لا نريد هذا!!

الناس كرهت الإسلام بسببكم يا تجار الدين!! فمتى ما جعتم حلَّ ما تحرِّمون!!

الناس وصلوا إلى القمر وعلماؤكم مشغولون بالحيض والنفاس والبول والنجاسات!!

الغرب جربوا واكتشفوا وأنتم في (قال الله وقال الرسول)!!

◆

الطعن والتشويه للعلماء سنة يهودية:

لا إخالك بمنأىٰ عن هذه الجمل والتراكيب، والتي ذاعت للأسف وانتشرت بين المسلمين اليوم، ولكن العجب من أن أسلوب الطاعنين في أهل العلم والفضل لم يتغير، بل وأفكارهم وانتقاداتهم- بل قد أقول: وألفاظهم- هي هي، وإن شئت فاقرأ هذه العبارات التاريخية في الطعن لتقف بأم عينيك علىٰ المسألة.

قالت اليهود: (جبريل ينزل بالحرب والقتل والعذاب)(١)؛ (إنه عدونا) أو (عدونا من الملائكة)(٢).

(ما لقرائنا هؤلاء؛ أرغبنا بطونًا، وأكذبنا ألسنةً، وأجبننا عند اللقاء!)(٣).

(اسمعوا؛ فما كلام الحسن وابن سيرين والنخعي والشعبي عندما تسمعون إلا خرق حيضٍ مطروحة)(٤).

---

(١) ذكره ابن حجر في الفتح من رواية بكير بن شهاب (٨/ ١٦٦).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٣٧٧)، وأصله عند البخاري (٣٣٢٩) من قول عبد الله بن سلام ونصه: (ذاك عدو اليهود من الملائكة).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ٣٣٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٢٩)، وصحح الشيخ أحمد شاكر إسناده.

(٤) من وصية عمرو بن عبيد يوصي أصحابه بالاستماع لختنه واصل بن عطاء، ويسقط من شأن العلماء، ينظر: الضعفاء، للعقيلي (٣/ ٢٨٥).

(إن علم الشافعي وأبي حنيفة جملته لا يخرج من سراويل امرأةٍ)(١).

إن حملة التشويه والطعن والازدراء بالعلماء لرد الحق والهدىٰ سنةٌ يهودية ماضية، فهم من أوائل من حفظ لنا التاريخ استهجانهم للعلماء، ودونك قصة الطعنة الأولىٰ من الطعنات التي أوردناها؛ حيث حضرت عصابة من اليهود إلىٰ النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبي. فأجاب النبي ﷺ بكل ثقةٍ أن سلوا عما شئتم، ولكنه ﷺ كان حريصًا علىٰ هدايتهم وإسلامهم، فما كان منه إلا أن انتهز هذه الفرصة، واشترط عليهم إن هو صدق فيما أجابهم أن يصدقوه فيما يقول، وهو ما توجبه الفطرة والعقل الناضج.

فقال: (ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يعقوب علىٰ بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئًا فعرفتموه، لتتابعني علىٰ الإسلام). فانهالوا يلقون عليه الأسئلة من كل حدب وصوب؛ بغية الجواب تارة، وحسدًا وتعجيزًا تارات أخرىٰ، فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أي الطعام حرَّم إسرائيل علىٰ نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟

---

(١) قول أحد زعماء المبتدعة، يقول علىٰ سبيل الاستصغار والاحتقار.
ينظر: الاعتصام، للشاطبي (٢/ ٢٣٩).

وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثىٰ؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ومن وليه من الملائكة؟ فكرر النبي ﷺ عهده وميثاقه وأبدىٰ وأعاد؛ ليذكرهم به، فقال: (عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعني؟)، فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق.

وهكذا بدأ النبي ﷺ- بتأييد من المولىٰ الكريم- يسرد لهم الأجوبة جوابًا جوابًا، حتىٰ أقروا بجوابه علىٰ كل تلك المسائل، وعندها احتالوا بالكيد والمكر كعادتهم في الخيانة بما عاهدوا؛ لئلا يلزمهم بالدخول في دين الإسلام والرجوع عن دينهم المحرف، فقالوا: أنت الآن تحدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نتابعك أو نفارقك. فقال رسول الله ﷺ: «فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبيًّا قط إلا وهو وليه». فقالوا بكل وقاحة: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك. قال: «فما يمنعكم أن تصدقوه؟!» فلم يكن عندهم جواب منطقي يردون به إلا أن قالوا: إنه عدونا!![1].

فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]. قال أبو جعفر: (أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا علىٰ أن هذه الآية نزلت

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢/ ٣٧٧).

جوابًا لليهود من بني إسرائيل؛ إذ زعموا أن جبريل عدوٌّ لهم، وأن ميكائيل وليٌّ لهم)(١).

◆

تقنية النَّظَّارةِ المُحَدَّبَةِ:

لن نطيل الحديث في قضية الازدراء بأهل العلم والفضل؛ إذ هي موضوع واسع، وليس مقصودنا، ولمركز سلف فيه مقالات قيمة(٢)، ولكن استخدمت هذه الوسيلة اليهودية من قبل من نتحدث عنهم وهم الحداثيون، وبذات التقنية التي نتحدث عنها، فمططوا النصوص ليؤدلجوها وفق أيديولوجياتهم، فقد تحملوا عن المستشرقين مناهجهم وأساليبهم، وكفوهم مؤونة الطعن والتشكيك في الإسلام وأصوله، وذهبوا يحملون حمولاتهم تلك في نصوص الكتاب والسنة، حتىٰ وإن كانت النصوص لا تحتمل تلك الحمولات، المهم أن يتوافق الأمر وأهواءهم وأيديولوجياتهم، حينئذٍ يكون لزامًا علىٰ النص أن يتحمله، ومع أن هذا الأمر يقدح في الباحث وأمانته ومنتوجه الفكري، بل وفي أحقيته بالبحث، إلا أن الحداثيين لم يبالوا بذلك، بل كانت

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٣٧٧).

(٢) ينظر: مقال: (يصرخون: ذاك عدونا من الملائكة):

/https://salafcenter.org/2796

سمة من سماتهم وتقنية من تقنياتهم في التعامل مع التراث الإسلامي أو الفكر الإسلامي أو (العقل الإسلامي) كما يحلو لهم أن يسموه.

◆

أركون والنَّظَّارةُ المُحَدَّبَةُ والطعن في العلم وأهله:

يبدو لنا هذا جليًّا حين نتأمل في صنيع أركون مثلًا، حين نقل عن أبي منصور الثعالبي قوله وهو يتحدث عن القاضي التنوخي أبي القاسم علي بن محمد بن داود: (ويحكىٰ أنه كان في جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبي، ويجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين علىٰ اطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة، وهم ابن قريعة وابن معروف والقاضي التنوخي وغيرهم)⁽¹⁾.

لقد انطلق أركون من هذا النص الذي أورده الثعالبي ليصور لنا حال العلماء وأفاضل القوم في تلك الحقبة الزمنية، فاستنبط من هذا النص أن علماء ذلك الزمان كلهم كانوا يقولون ما لا يفعلون، وأنهم في الباطن يختلفون عما هم عليه في حالهم الظاهر، وأنهم أهل مجون وخلاعة وخداع ومكر من الدرجة الأولىٰ، فهم ما بين نفاق وتدليس ورقص ولهو ونساء وليالٍ حمراء!! كل هذه المعاني استنبطها أركون من النص السابق!!!

---

(١) يتيمة الدهر (٢/ ٣٩٤). ونقله أركون في: نزعة الأنسنة في الفكر العربي (ص: ١٤٨).

اقرأ إن شئت نص أركون، يقول: (كان مسكويه يريد التركيز علىٰ جانب القدوة والمثل لحياة كبار الشخصيات ولعملها السياسي؛ ولهذا السبب فقد أهمل في تاريخه تمامًا ذكر الحياة اللاهية، حياة العبث والمجون والفسق التي كانت سائدة في قصر هذا الوزير الفطن، والواقع أنه عندما ابتدأ يكتب (تجارب الأمم) كان قد ترك صحبة المهلبي، وأدار ظهره لهذا الماضي الماجن الذي يدينه بكل قوة نظرًا إلىٰ أنه قد ساهم فيه واستنفد طاقات شبابه في متعه وملذاته، لكأنه كان يريد أن ينسىٰ ماضيه الماجن البعيد عن الحكمة والرزانة، أو لكأنه كان يريد أن يهرب نفسيًّا من تلك الفترة ويقص علينا (تنويخ) بهذا الصدد نادرة مهمة تدل علىٰ حياة الفسق والمجون التي كانت تغطس فيها حتىٰ الشخصيات الأكثر خطورة وأهمية، يقول: ...)، وهنا أورد النص السابق.

ثم قال: (وكما كان عليه الحال أيام وزراء الخلفاء العباسيين، فإنه كان للوزير المهلبي قصر يدعىٰ دار البركة، وكانت الحفلات والاستقبالات الخاصة تتم فيه أيضًا، وقد خلَّف لنا الثعالبي صفحاتٍ رائعةً عن تلك الحفلات والاستقبالات، هناك حيث النساء والموسيقي والشعر والخمر والديكور الداخلي والحدائق الغناء والمنظر الجميل علىٰ الفرات، حيث كان كل ذلك يتضافر ويتناغم لكي يهيج شهوات الجسد، وينسي هذه الشخصيات العظيمة مطالب

الروح والفكر، هناك كانوا ينسون كل همومهم ومتاعبهم ويرمون بأنفسهم في عالم الملذات والمتع المادية، ولكن ذلك لم يكن متاحًا لكل الناس، وإنما فقط للشخصيات المترفة ذات الامتيازات والوجاهات (أي: لِعلية القوم)، وكان لهذه الشخصيات وجودان: وجود نهاري ووجود ليلي، وجود علني ووجود سري.

ففي النهار يبدون بمظهر الشخصيات الجادة الوقورة المسؤولة عن حل مشاكل الناس، وكانوا يحافظون علىٰ هذا المظهر الوقور أمام رعيتهم؛ لكيلا تزهد فيهم، أو تكف عن احترامها لهم إذا ما عرفت حقيقة أمرهم وكيف يعيشون حياتهم الخاصة، ولكن ما إن يخيم الليل ويسدل أستاره حتىٰ يصبح القصر معزولًا عن المدينة، وتدخل هذه الشخصيات الضخمة في حياة أخرىٰ مختلفة تمامًا، يصبح القصر عندئذٍ ملكًا لمن يستبيحون المتع أو لمن يقدمها لهم.

صحيح أن الفكر لم يكن مهجورًا تمامًا، فقد كان الوزراء يخصصون بعض الأمسيات للمناظرات العلمية أو السهرات الأدبية والفلسفية، ولكن سهرات اللهو كانت أكثر من سهرات الجد، وكانت الأوقات المجانية تتغلب علىٰ الأوقات المفيدة، وكان التطرف في المتع يتغلب علىٰ التعقل والاعتدال.

وهذا التناقض الكامل بين حياتين يبدو غير محتمل، ولا يكاد يصدق لمن ينظر إليه من الخارج، ولكن لا يبدو أنه كان يطرح أي مشكلة بالنسبة لمن يعيشونه ويمارسونه، فقد كانوا منغمسين في هذه الحياة المزدوجة، ولا يشعرون بأي تناقض، فقد كان القاضي الوقور ذو اللحية البيضاء يقضي في المحكمة، ويؤم الصلاة، ويعطي دروسه في الجامع نهارًا، ثم يتحول في الليل دون أي مشكلة إلىٰ شخص ماجن، يغترف اللذات اغترافًا، وكان ذلك يشكل تناقضًا صارخًا لا يمكن لأي أخلاق صحيحة أن تقبله، ويشعر المرء بالحيرة أكثر عندما يعلم بأن أبا سليمان المنطقي- وهو الرجل الوقور والعالم الفذ والأخلاقي النبيل والزاهد المترفع- كان يلتقي هو والتوحيدي بأشخاص من سجستان أقل ما يقال فيهم أنهم كانوا ذوي أخلاق وضيعة ومنحطة! فكيف نفسر ذلك؟ ما سر هذا التناقض الرهيب؟

لن نحاول هنا تفسير سبب هذه الظاهرة أو هذه العقلية التي كانت سائدة في كل الأدب العربي والكلاسيكي، وإنما الشيء المهم هو الإشارة إلىٰ أهميتها والتركيز عليها كظاهرة؛ وذلك من أجل أن نفهم كيف أن مسكويه قد عاش مدة اثني عشر عامًا في مثل هذا الجو)(١).

---

(١) نزعة الأنسنة في الفكر العربي (ص: ١٤٧-١٥٠).

قبل كل شيء، ألم يكن على أركون أن يتأنى وينظر بمعاول حفره وأركيولوجيته التي يدعيها في ثبوت هذا النص وصحته؟!

لو تريث قليلًا لوجد أن المصدر الذي استند إليه مع أنه مصدرٌ تاريخي، إلا أنه هو أيضًا ذكره بصيغة التمريض كما هو معروف عند علماء الإسلام؛ ما ينبهنا إلى إشكاليات فيه؟!

ولو تروى ونظر وبحث في متن هذا النص بعد النظر في السند وقارنه بغيره من المتون والنصوص والمرويات لوجد الحال غير الحال، ولوجد ما تخيله هو مجرد مشهد هوليودي في فيلم متقن السيناريو.

لن نحاول هنا تفسير اللامبالاة بسند القصة وصحة مصدرها وتناسق متنها ما دام أنه وافق هوى أركون، حيث يبدو أنه ليس من المهم صحة المعلومة بقدر ما هو مهم موافقتها لما يهواه؛ ولذا لن نطيل الوقوف عندها، ولكن قل لي بربك:

هل هذه الحالة المخزية التي يصورها أركون للعلماء دل عليها شيء من حروف النص الأصلي المنقول؟!

من أين له أن أهل العلم والفضل كانت لهم السهرات والحفلات والليالي الحمراء التي كانت تدار فيها كؤوس الخمر وتحضرها المومسات والراقصات؟! هل أفاد النص ذلك؟!

من أين له أن الموسيقىٰ كانت حاضرة؟! هل أفاد النص ذلك؟!

من أين له أن الخمر كان يدار بينهم؟! أم كان يخفىٰ عليه أن حل النبيذ كان سائدًا بين أهل العراق؟!

بل من أين استنبط أن جميع الشخصيات العظيمة كانت تقضي لياليها في المتع الجسدية حيث تستحل ما تقرر تحريمه نهارًا علىٰ عامة الناس؟!

وهل أفاد النص أنهم كل ليل كانوا في تلك السهرات الخليعة إن كانت هناك سهرات أصلًا؟! أم النص يدل علىٰ تبسطهم في ليلة أو ليلتين؟!

وهل كان في النص أن الشخصيات الهامة من العلماء والقضاة والأئمة كانوا عبارة عن عصابة ماكرة علىٰ درجة عالية من الاحترافية في التمويه والخداع والمتاجرة بالدين، فكانوا يتظاهرون به نهارًا ليحققوا مكاسبهم، وما إن يخيم الليل حتىٰ يظهروا علىٰ حقيقتهم ويقبلوا علىٰ المجون والفسق والعار، بل كانوا ينغمسون فيها انغماسًا ويغترفونها اغترافًا!!

وارجع البصر وانظر هل في النص أنهم كانوا يقيمون (الحفلات والاستقبالات) التي تضج بالموسيقىٰ وتعج بالنساء والمومسات والفواحش كما يصور أركون!!

ثم ارجع البصر وانظر هل في النص ذكر لأئمة المساجد وأهل العلم والحديث الذين يروون الحديث ويعلمون العلم في المساجد؟! أما أنها من ولع أركون بالحشو وزيادة البهارات وتنزيل حمولاته الفكرية علىٰ النص؟!

ولم يذكر الثعالبي لهم شيئًا من ذلك، وإنما ذكر أنهم جميعًا أصحاب لحىٰ بيضاء، فأين التلازم بين أن يكون المرء ذا لحية وبين أن يكون من أهل العلم والفضل؟! أهو جهل من أركون بواقع الناس في ذلك الزمان؟! أم تغافل منه عن أن إعفاء اللحية من عاداتهم التي يتعبدون الله بها؟!

وكيف استنبط أن لأهل الفضل والعلم شخصيتين: شخصية ليلية وشخصية نهارية؟! الأولىٰ ماجنة إلىٰ أفجر درجات الفجور، والثانية صالحة وقورة في أعلىٰ مراتب الخيرية والصلاح.

ومن أين له أن الشخصيات الهامة أو العظيمة من أهل العلم والقضاة والوزراء كانوا يعانون انفصام الشخصية، والتنوخي عينةٌ من تلك العينات الكثيرة؟! وكأنهم مجبرون علىٰ التظاهر بالتدين من أجل المال أو المناصب؟!

هل ذكر الثعالبي كل هذه التفاصيل ليستنبطها أركون ويجعلها الحالة الدائمة أو الظاهرة المستمرة للعلماء كلهم؟!

إننا وإن أقررنا بأن لهم جلسات يتسامرون فيها ويتبسطون فيها كما دل عليه النص، إلا أننا لا نستطيع أن نستنبط من النص تلك الحالة المزرية التي يصورها أركون لأهل العلم، ناهيك عن أنها صورة واحدة من الصور وفي مؤلفٍ واحد فقط، فلم هذا الاختزال؟!

فلو ذهبنا ننقب المراجع ونفتش الكتب الأخرىٰ لوجدناها لم تزد علىٰ ما ذكره الثعالبي في كتابه، فمن أين له تلك الزيادات؟! أم أنه يرىٰ أن تلك هي حال كثير من قساوسة النصارىٰ ورهبانهم، وأسقط حكمهم علىٰ علماء الإسلام بجامع أن كلًّا منهم أهل دين؟!!

إنك لا تكاد تفرق بين حال هؤلاء العلماء الذين يتكلم عنهم وبين حال المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، والذين قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ③ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٣، ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢، ١٤٣].

ولا أدري كيف استنبط أركون هذا التعميم علىٰ كل العلماء؟!

وعلىٰ فرض أن ما استنبطه في حال هذا الشخص صحيح، فكيف سوغ له عقله الفذ أن يجعله حالة عامّةً لجميع علماء ذلك العصر؟!(١).

* * *

۞ جولد زيهر وتقنية النَّظَّارةِ المُحَدَّبَةِ:

يبدو هذا غريبًا كما يقول أركون، ولكنه في الحقيقة ليس بغريب علىٰ من كان مثله رضيعًا للمنظومة الاستشراقية، فهو يرنو إلىٰ نزع القداسة والتي قعَّد أسلافه من المستشرقين قواعده.

لن نعدم الأمثلة علىٰ هذه التقنية إن بحثنا عنها في إنتاجهم، ولعلنا نتفكه قليلًا بما فعله (جولد زيهر) حيث يقول: (ولما رغب الخليفة الأموي عبد الملك في منع الحج إلىٰ مكة؛ لأنه كان متضايقًا من منافسه عبد الله بن الزبير؛ لجأ إلىٰ وسيلة لصرف الناس عن الحج إلىٰ مكة، وذلك بفكرة الحج إلىٰ بيت المقدس، وأن الطواف به يعد مثل الطواف بالكعبة، وأنيطت مهمة تبرير هذا الإصلاح الموجه سياسيًّا للحياة الدينية بالزهري المحدث التقي؛ وذلك باختراع قول ينشر علىٰ

---

(١) ينظر: القرآن الكريم والقراءات الحداثية للحسن العباقي (ص: ٨٨).

أنه قول للنبي، وهو أن هنالك ثلاثة مساجد يشد الناس إليها الرحال، في مكة والمدينة وبيت المقدس)⁽¹⁾.

فهذا إضافة إلىٰ كونه زعم أن الحديث من وضع الزهري، فإن الحديث لا يتضمن شيئًا مما قاله علىٰ فرض أنه موضوع، فليس فيه تزهيد في المسجد الحرام، ولا تهوين من شأنه، بل ولا تفضيل لبيت المقدس ولا لزيارته أو شد الرحل إليه علىٰ شد الرحل إلىٰ مكة والمدينة، فضلًا عن مشروعية الطواف فيه!! بل ذكر الكعبة فيه مقدم علىٰ ذكر بيت المقدس كما هو في نص الحديث، إضافة إلىٰ أن الذي بنىٰ قبة الصخرة هو الوليد بن عبد الملك، وأيضًا العلماء لم يذكروا شيئًا عن ذلك الحج الذي اخترعه جولد زيهر، وكذلك لم يكن عمر الإمام الزهري حين وفاة ابن الزبير ليؤهله ليمثل الدور الذي اختاره له جولد زيهر، هذا كله فضلًا عن أنه لم يكن يعرف عبد الملك بن مروان⁽²⁾.

وإن شئت فخذ مثالًا آخر من استخدام هذه التقنية من هذا المستشرق، فهو يزعم أن الإمام الزهري اعترف صراحةً بأن الخلفاء أكرهوه علىٰ وضع الأحاديث والكذب علىٰ النبي ﷺ، وأنه استسلم

---

(١) دراسات محمدية لجولد زيهر، ترجمة: الصديق بشير نصر (ص: ٦٠).

(٢) ينظر: السنة ومكانتها للسباعي، ط. المكتب الإسلامي (١/ ٢١٧).

لذلك، ويستشهد بقول الزهري الذي رواه عنه معمر: «إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ الأُمَرَاءَ أَكْرَهُونَا عَلَىٰ كِتَابَةِ أَحَادِيثَ».

مع أن نص الإمام الزهري ليس فيه شيءٌ مما عناه جولد زيهر، فهو إنما يتكلم عن أنه كان يمتنع عن كتابة الأحاديث ليعتمد تلامذته علىٰ ذاكرتهم، فلما أصر هشام علىٰ كتابة الأحاديث لولده كتبها وقال مقولته: (يا أيها الناس، إنا كنا منعناكم أمرًا قد بذلناه الآن لهؤلاء، وإن هؤلاء الأمراء أكرهونا علىٰ كتابة (الأحاديث)، فتعالوا حتىٰ أحدثكم بها)، فحدثهم بالأربعمائة الحديث(١)!!!

وهنا يكفينا أن نضع علامات التعجب من هذا الصنيع.

إذن هذا هو منطلق أركون أو (الأيديولوجية) التي يريد أن يحمِّل النصوص التراثية حمولاتها!!

◆

۞ النَّظَّارةُ المُحَدَّبَةُ تقنية المبتدعة وأعداء الإسلام منذ القدم:

إن تقنية تمطيط النصوص وتشقيق معاني مفرداتها وتراكيبها- بغية تحميلها الأفكار والأهواء الشخصية أو إسدال أستار الوحي والشرعية

---

(١) السنة ومكانتها للسباعي، ط. المكتب الإسلامي (١/ ٢٢١).

على الأفكار والعقائد المسبقة والتي أسميناها (النَّظَّارةُ المُحَدَّبَةُ)- تقنيةٌ قديمة تجاوزها أهل الإسلام مذ عصور سحيقة، فقد استخدمتها كل طائفة من الطوائف المخالفة لتبرير عقيدتها وفكرها، فالخوارج ركزت على آيات الوعيد وأضافوا من أنفسهم معنى زائدًا، وهو خروج كل من ارتكب كبيرة من الإسلام ودخوله في أوحال الكفر، والمرجئة ركزوا على نصوص الوعد وأضافوا من أنفسهم أن من آمن فقد وعده الله بالجنة ولا يخرج المرء من دائرة الإيمان وإن فعل ما فعل؛ مبررين بأن الله لا يخلف الميعاد.

وكذلك الحال في غيرهم من فرق الضلال، ويا للعجب! كيف يصر الحداثيون على تكرار ذات الوسيلة لذات الأهداف، فهل كانوا يستقون هذه الأساليب من أهل البدع المتقدمين؟!

◆

۞ نصر حامد أبو زيد والنَّظَّارةُ المحَدَّبَةُ:

ولنأخذ مثالًا آخر من أمثلة الحداثيين ليتبين لنا مركزية هذه التقنية في الفكر الحداثي، فقد أورد نصر حامد أبو زيد نص الإمام الشافعي (٢٤١هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ في الرسالة حيث يقول: (كل ما سنَّ رسول الله مما ليس فيه كتاب، وفيما كتبنا في كتابنا هذا، من ذكر ما مَنَّ الله به على العباد من

تعلم الكتاب والحكمة: دليلٌ علىٰ أن الحكمة سنة رسول الله)⁽¹⁾.

ويستنتج نصر حامد أبو زيد من هذا النص ما يلي: (وإذا كانت الحكمة هي السنة، فإن طاعة الرسول المقترنة دائمًا بطاعة الله في القرآن تعني اتباع السنة، ولا يمكن الاعتراض علىٰ الشافعي بأن المقصود بطاعة الرسول طاعته فيما يبلغه من الوحي الإلهي: القرآن؛ لأنه قد جعل السنة وحيًا من الله يتمتع بنفس القوة التشريعية والإلزام.

ولا يمكن الاعتراض أيضًا بأن الفرق بين سنة العادات والتقاليد فرق غير واضح، خاصةً مع اتساع مفهوم السنة ليشمل الأقوال والأفعال والموافقات؛ إذ يلجأ الشافعي إلىٰ فكرة (العصمة) التي تمتع بها الأنبياء جميعًا ومحمد خاصةً؛ ليزيل مثل هذا الاعتراض.

هكذا يكاد الشافعي يتجاهل (بشرية) الرسول تجاهلًا شبه تامٍّ، وتكاد تختفي من نسقه الفكري «أنتم أعلم بشئون دنياكم»⁽²⁾، حتىٰ إنه يجعل من مواضعات النظام الاجتماعي السائد- والذي لم يقمه الإسلام- سنةً واجبة الاتباع، يجري عليها القياس)⁽³⁾.

---

(١) الرسالة (١/ ٣٢).

(٢) رواه مسلم (٢٣٦٣)، ونص الحديث: أن النبي ﷺ مر بقوم يُلقحون فقال: «لو لم تفعلوا لصلح»، قال: فخرج شيصًا، فمر بهم فقال: «ما لنخلكم؟!» قالوا: قلتَ كذا وكذا، قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

(٣) الإمام الشافعي وتأسيس الإيديولوجيا الوسطية في الإسلام (ص: ١٣).

ولو رجعنا إلىٰ نص الشافعي (٢٤١هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ هناك في الرسالة حين تكلم عن العصمة لا نجد فيه ما يثبت أنه يتجاهـل بشـرية الرسـول ﷺ كما يدعي نصر حامد أبو زيد، بل إن كلامه عـن العصـمة أولًا لـم تكـن فكرة اخترعها من كيسه كما يريد نصر حامد أبو زيـد أن يصـور لنـا، بـل هي واردة في كلام الله ﷻ، والشافعي ليس إلا مستدلًّا بمـا هـو موجـود في كتــاب الله تعــالىٰ ومستشــهدًا بــه، لا مختر عًــا أفكــارًا أو معتقــدًا اعتقاداتٍ مسبقة ليحملها النص الشرعي كما هو حال أهل الزيغ، ثم ما كلامه عن العصمة وتثبيتها إلا لأنه يعتقد بشرية النبـي ﷺ. أضـف إلـىٰ ذلك أن الإمام الشافعي لم يقل بأن النبي صلىٰ الله عليه معصـومٌ في كـل شؤونه الحياتية، وإنما العصمة التي يتحدث عنها هي العصمة في تبليـغ ما كلف بتبليغه، وهداية الناس هدايةَ الدلالة والإرشاد، ويدل علىٰ هذا المعنىٰ ذات الحديث الذي استدل به نصر حامـد أبـو زيـد علـىٰ ضـده، وهو حديث تأبير النخل، فأقوىٰ النصوص الواردة فيـه - والـذي قدمـه الإمـام مسـلم علـىٰ غيـره مـن النصـوص- هـو مـا رواه عـن موسـىٰ بـن طلحـة، عـن أبيـه قـال: مـررت مـع رسـول الله ﷺ بقـوم علـىٰ رؤوس النخل، فقال: «ما يصنع هـؤلاء؟» فقـالوا: يلقحونـه، يجعلـون الـذكر في الأنثىٰ فيلقح، فقـال رسـول الله ﷺ: «مـا أظـن يغنـي ذلـك شـيئًا»، قـال: فـأخبروا بـذلك فتركـوه، فـأخبر رسـول الله ﷺ بـذلك فقـال: «إن كـان

ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظنًّا، فلا تؤاخذني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئًا فخذوا به، فإني لن أكذب على الله ﷻ»[1].

فالنبي ﷺ قرر أن الأمور الخاضعة للخبرة والتجربة البشرية يتفاوت الناس فيها، وقد يكون غير النبي ﷺ أخبر بها، ومن ذلك تدبير شؤون الحياة كتنظيم الأعمال وإدارة المنشآت وبناء المباني وتخطيطها، وهو ما يظهر في أخذ النبي ﷺ بالشورىٰ في كثير من الأحداث والمناسبات كحفر الخندق في غزوة الأحزاب.

ولكن هذا النص الدال علىٰ ما استنبطه الشافعي غالبًا ما يُغفَل في النقاشات الحداثية؛ إذ هو لا يخدم ما يرمونه من تهوين أمر النصوص والإطاحة بالسنة النبوية، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وإنما يقتطعون الرواية الأخرىٰ من الحديث في ذات الواقعة المعينة، لأنه يخدم مقاصدهم وأغراضهم؛ فهم يريدون أن يجعلوه نصًّا عامًّا وقاعدة مطردة في شئون الدين والدنيا!! ألا وهو قول النبي ﷺ: **«أنتم أعلم بأمر دنياكم»**.

ومن هنا يتبين لنا خلط نصر حامد أبو زيد وتناقضه، حيث قول الإمام الشافعي ما لم يقله في قضية العصمة، ثم زعم إفكًا أن الإمام

---

[1] صحيح مسلم (٢٣٦١).

الشافعي متناقض حيث يقر بحجية السنة ثم هو لا يلقي بالًا لحديث: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»، فحكمه بالتناقض هو التناقض بعينه.

وإن شئت فلنستعرض كلام الإمام الشافعي (٢٤١هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن العصمة، والذي عزا إليه نصر حامد أبو زيد استنتاجه، يقول الشافعي: (قال الله -جل ثناؤه- لنبيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [الأحزاب: ١، ٢]، وقال: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وقال: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

فأعلم الله رسوله منه عليه بما سبق في علمه من عصمته إياه من خلقه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وشهد له -جل ثناؤه- باستمساكه بما أمره به، والهدىٰ في نفسه، وهداية من اتبعه، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، وقال: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ

وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

فأبان الله أن قد فرض علىٰ نبيه اتباع أمره، وشهد له بالبلاغ عنه، وشهد به لنفسه، ونحت نشهد له به، تقربًا إلىٰ الله بالإيمان به، وتوسلا إليه بتصديق كلماته)⁽¹⁾.

فأين هذا مما استنتجه أركون وحمَّله لنص الشافعي (٢٤١هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ.

◆

۞ النَّظَّارةُ المُحَدَّبَةُ وإيديولوجية الدين:

ولنختم أمثلتنا بهذا المثال الثالث، يقول أركون وهو يتكلم عن أيديولوجية الدين: (أما الدين بتركيباته اللاهوتية الرسمية- أي: كمؤسسة متضامنة مع السلطة- فهو شيء آخر، إنه أيديولوجيا، إنه هو الذي يحرف الوظيفة الأساسية للدين كما قلنا- أي: الوظيفة الروحية-، وبالتالي فنحن نفرق هنا بين معنيين للدين: المعنىٰ الروحي المنزه والمتعالي، والمعنىٰ القانوني الرسمي السلطوي أو الذي يخلع المشروعية علىٰ السلطات السياسية.

---

(١) الرسالة (١/ ٨٥).

هذا ما حصل علىٰ يد القديس توما الأكويني في المسيحية، أو علىٰ يد الأشعري في الإسلام (من جملة أمثلة أخرىٰ بالطبع). فعندما يربط توما الأكويني بين القانون الطبيعي وبين نظرية الخلق الانعكاسي الصادر بكل دقة عن الله، ويقول بأنه ليس إلا نتيجة من نتائج أوامره ووصاياه، فإنه لا يخلع المشروعية الإلهية علىٰ ما هو بشري، ويقيد ما هو بشري بما هو إلهي، بمعنىٰ أنه يخلع المشروعية الإلهية علىٰ أعمال البشر وقوانينهم وأنظمتهم، وعندما يقول الأشعري بأن الله خلق كل شيء: العدل والظلم الخير والشر؛ مستدركًا بأن الظلم أو الشر قد فعلا عبر شخص آخر غيره؛ فإن ذلك يعني تقييدًا للفعل الإنساني، يعني أن الإنسان غير مسؤول حتىٰ عن أعماله. بمعنىٰ أن كلا هذين الموقفين اللاهوتيين يؤديان إلىٰ هزيمة العقل البشري أو تراجعه عن حقه في التوصل إلىٰ حرية الاختيار والإرادة، بمعنىٰ أن الله هو الذي يفعل والإنسان ليس إلا منفذًا لا إراديًا.

وهكذا يسجنان العقل ضمن نظرية الجبر والحتمية باسم إيمان مقطوع عن تارخيته (أي: الإيمان المجرد المقطوع عن لحظته التاريخية ومشروطيتها المادية والاجتماعية والاقتصادية)، ومع ذلك فهما يعتبران هذا الإيمان صالحًا لكل زمان ومكان، أي: لكل اللحظات والعصور، وليس فقط للحظة التاريخية التي انبثق فيها في

زمن توما الأكويني أو في زمن الأشعري)[١].

لو بحثنا عن المراجع ونظرنا فيها، ولا ندري إن كان أركون تهمه المصادر والمراجع أم لا؟! فهو لم يذكر في كل هذه الادعاءات أو الأفكار والعقائد التي نسبها إلىٰ توما الأكويني أو إلىٰ الأشعري ولا مرجعًا واحدًا، سوىٰ أنه بيَّن أنه اقتبس في نصه عنوان مقال لـ (ميشال ميسلان) وهو مؤرخ أديان فرنسي متخصص في علم الأنثروبولوجيا، والذي كان عميدًا لقسم علوم الأديان في جامعة السوربون، والتي حصل أركون علىٰ الدكتوراه منها، فهل كان هذا المقال مرجعه الوحيد في هذا الذي كتبه واستنتجته؟!

لن نقف عند هذا طويلًا حيث إن أركون قد لا تهمه المصادر والمراجع وصحتها بقدر ما تهمه صحة الأفكار والمسلمات التي يتعامل معها، ولكن لو بحثنا نحن عن مصدر هذا النص لوجدنا أبا الحسن الأشعري يتحدث عن هذه القضية في كتابه (الإبانة في أصول الديانة) حيث يقول: (ونثبت أن لله قوة، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

---

[١] قضايا في نقد العقل الديني (ص: ٢٣٧).

ونقول: إن كلام الله غير مخلوق، وأنه سبحانه لم يخلق شيئًا إلا وقد قال له: كن، كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وأنه لا يكون في الأرض شيء من خير أو شر إلا ما شاء الله، وأن الأشياء تكون بمشيئة الله ﷻ، وأن أحدًا لا يستطيع أن يفعل شيئًا قبل أن يفعله، ولا يستغني عن الله، ولا يقدر على الخروج من علم الله ﷻ.

وأنه لا خالق إلا الله، وأن أعمال العباد مخلوقة لله مقدرة، كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئًا، وهم يخلَقون)(١).

لسنا هنا نناقش صحة هذا القول أو عدمه، فليس هو مقصودنا، ولكننا نبحث في نص الإمام الأشعري، وهل فيه ما استنبطه أركون؟!

قبل ذلك لا ندري حقيقةً هل راجع أركون هذا النص ودقق النظر فيه أم لا؟! ولكننا نجده يقول الإمام الأشعري ما لم يقله؛ حيث إنه لم يصرح بالاعتقاد بأن الله ﷻ جعل العباد مجبرين على أفعالهم التي يفعلون، وأما تصريحه بأن الله ﷻ خالق فعله وأنه العبد ليس بخالق فليس فيه تصريح بذلك.

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة (ص: ٢٣).

أضف إلى ذلك أن سياق الحديث في الرد على المعتزلة القائلين بأن العبد خالق فعله، وبه بدأ مقدمة الكتاب.

أضف إلى ذلك أنه صرح بعده بصفحات باعتقاده بعدم إلزام الله لأطفال المشركين بشيء بل يخيرون، كما قال: (أطفال المشركين يؤجج الله تعالى لهم في الآخرة نارًا، ثم يقول لهم: اقتحموها، كما ورد في الرواية)⁽¹⁾.

◆

۞ الخاتمة:

تبين لنا كيف أن الحداثيين استخدموا كل حيلة ووسيلة؛ للولوج بحمولاتهم ومسلماتهم الفكرية التي آمنوا بها وسلموا لقائليها، وكان من أولى التقنيات التي استخدموها تقنية تحميل النص ما لا يتحمل، أو تقنية النظارة المحدَّبة التي توسع الصورة الحقيقية وتضخمها أكبر مما هي في الواقع، والتي ترى الشيء كما يحب الناظر أن يراه من خلاله، لا كما هي الصورة في حقيقتها وواقعها، فاستنتجوا من كل نصٍّ تلك المسلمات والمفاهيم وإن كان النص في حقيقته لا يدل على ما يريدون، ولكن المهم هو أن يتوافق مع أهوائهم وأيديولوجياتهم.

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة (ص: ٣٤).

وهذا ليس جديدًا علىٰ أهل الإسلام كما ذكرنا في ثنايا المقال، ولكن ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧، ٨].

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم(١).

* * *

---

(١) إعداد: عمار بن محمد أعظم.

(٣)

من تقنيات الحداثة

حرب المصطلحات

الجوهر والعرض والجنس والفصل والماصدق والمركب والذرة والمتحيز واللامحدود وغيرها من المصطلحات، دخلت على المجتمع الإسلامي وأرّقته دهرًا من الزمان، وأشغلت طلبة العلم الشرعي الراغب في فهم كلام الله تعالىٰ وكلام رسوله ﷺ، ورد الشبهات المثارة حولهما، سواء من التيارات الفلسفية أو المنطقية أو الكلامية.

ومن أكبر الإشكالات التي واجهت علماء الإسلام الألفاظ المجملة والمصطلحات الفضفاضة، التي تحتمل حقًّا وباطلًا، وتضمّ في نفسها طيبًا وخبيثًا، ويختلط فيه الفاسد مع الصالح، ويختلط علىٰ الناس الحق مع الباطل، ولا يدري المرء حينها مع أيٍّ الحق، وتزداد الحاجة إلىٰ العلماء الراسخين المحقِّقين؛ ليبيِّنوا للناس ويرشدوهم سبل السلام.

لا يخفىٰ أن لليهود النصيبَ الوافر من هذا التلاعب والتحايل علىٰ المصطلحات الشرعية، وتبديلها وتغييرها، فقد قال الله تعالىٰ لهم:

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨، ٥٩]، فبدلوا القول الذي أمرهم الله به، وقالوا قولا غير الذي أمروا أن يقولوه(١)، ولما حرم الله تعالىٰ عليهم الشحوم جملوها وأذابوها ثم أكلوا ثمنها؛ إيهامًا بأنها ليست الشحوم المحرمة عليهم(٢).

واليوم نجد التيار الحداثي يحذو حذو أولئك في توليد المصطلحات بشكل ملحوظ داخل الفضاء الإسلامي، ولا يخطئ القلم حين يُسمِّيه هوسًا بتوليد المصطلحات، فقد غدا أسلوبًا واضحًا من أساليبهم، ونمطًا من أنماط الكتابة لديهم، وسمة من السمات التي يعرفون بها بين الكتاب.

وقد يعترض معترض بأن القاعدة الشهيرة أنه "لا مشاحة في الاصطلاح"؛ ولذا من هنا نبدأ بتأصيل هذه القضية ثم ننتقل للحداثيين.

* * *

---

(١) ينظر: جامع البيان، ت. شاكر (٢/ ١١٢).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٢٢٢٣)، صحيح مسلم (١٥٨١)، فتح الباري لابن حجر (٤/ ٤١٥).

توليد المصطلحات بين التجديد والتضليل:

توليد مصطلحات جديدة وصياغة لدليل سابق؛ مثل: أن يعرض الإنسان مسألة من المسائل أو دليلًا من دلائله بلغة عصرية ومصطلحات حديثة ومعانٍ مستخدمةٍ في زمننا، فهذا له حالات كثيرة ومقاصد متباعدة، منها:

➢ أن يقصد به توضيح العلم ومسائله ودلائله؛ بتسهيله واستبدال مصطلحاته بمصطلحات قريبة من العقول ومفهومة في الأذهان، لإفهام المبتدئين ممن لا يستوعب المستويات العالية في اللغة، فهذا لا إشكال فيه، ولكن يشترط فيه ألا يكون لفظًا مجملًا يحمل في مبناه معنًىٰ باطلًا، وذلك أن "مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم ليس بمكروه - إذا احتيج إلىٰ ذلك وكانت المعاني صحيحة- كمخاطبة العجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعرفهم، فإن هذا جائز حسن للحاجة، وإنما كرهه الأئمة إذا لم يحتج إليه، ولهذا قال النبي لأم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص -وكانت صغيرة ولدت بأرض الحبشة؛ لأن أباها كان من المهاجرين إليها- فقال لها: «يا أم خالد، هذا سناه»⁽¹⁾، والسنا بلسان الحبشة: الحسن؛ لأنها كانت من أهل هذه اللغة. وكذلك يترجم القرآن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٢٣).

والحديث لمن يحتاج إلىٰ تفهيمه إياه بالترجمة، وكذلك يقرأ المسلم ما يحتاج إليه من كتب الأمم وكلامهم بلغتهم"(١). وهنا ينبغي التنبُّه إلىٰ أن هذه مرحلة استثنائية وليست هي الأصل، أو قل: مرحلة مؤقتة، ولا شك أن من يستطيع فهم المصطلحات القرآنية والنبوية مباشرة أجل وأعلىٰ منزلة ممن يحتاج إلىٰ من يوضِّح له تلك المصطلحات بما هو في دائرة مصطلحاته وبيئته.

➢ أن يقصد به التعمية والغموض وإمرار بعض الأفكار والمنتجات الأجنبية الدخيلة علىٰ الأمة الإسلامية، وهذا مكمن الخطر في فتح باب المصطلحات علىٰ مصراعيه، فإن استبدال أمة لألفاظها بألفاظ غيرها، أو تركها مصطلحاتها واستعمالها لمصطلحات أمة أخرىٰ لا يحصل غالبًا إلا نتيجة ضعف وانهزام الأولىٰ أمام الأخرىٰ، أو نتيجة انبهار الأولىٰ بالثانية وتعظيمها لها، فهذا أحد المزالق المهلكة التي انزلق فيها بعض من فتن بالموجة اليونانية من علماء الإسلام، وهو ما يؤدِّي غالبًا إلىٰ الإعراض عن المصطلحات القرآنية والنبوية، واستبدالها بمصطلحات دخيلة مجملة، ولا تؤدي ذات المعنىٰ الذي تؤديه المصطلحات القرآنية والنبوية، بل إنها تأتي محمَّلة بأثقال من الأفكار

---

(١) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٣/ ٣٠٦).

والدلائل، منها ما هو باطل، ومنها ما هو حق، وهذا لا شك أنه نوع تضليل وتوعير لسبيل الحق، وصد عن سبيل الله ﷻ، وهنا لا بد أن ننبه إلىٰ قضية هامة، وهي الحالة الثالثة:

➢ أن يقصد الإعراض عن المصطلحات القرآنية والنبوية؛ بحجة أنها مصطلحات قديمة ومستهلكة، وغير متناسبة مع عصرنا الذي شهد ثورة في المصطلحات والأفكار، وعليه فيجب علينا استبدال المصطلحات القديمة (مصطلحات القرآن والسنة) بالمصطلحات الحديثة، كمصطلحات العلوم الحديثة من علم النفس وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم، ولا شك أن هذا مذموم؛ فإن المصطلحات القرآنية والنبوية ونصوصهما ومعانيهما يجب أن يُجعلا هما الأصل وإليهما المرجع؛ إذ فيهما الحجة، كما أنهما أبعد عن الغلط والخلط وأقرب إلىٰ الدقة والضبط، وفي هذا يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: "فالمقصود أن معرفة ما جاء به الرسول وما أراده بألفاظ القرآن والحديث هو أصل العلم والإيمان والسعادة والنجاة، ثم معرفة ما قال الناس في هذا الباب لينظر المعاني الموافقة للرسول والمعاني المخالفة لها، والألفاظ نوعان: نوع يوجد في كلام الله ورسوله، ونوع لا يوجد في كلام الله ورسوله. فيعرف معنىٰ الأول ويجعل ذلك المعنىٰ هو الأصل، ويعرف ما يعنيه الناس بالثاني ويرد إلىٰ الأول، هذا طريق أهل الهدىٰ والسنة.

وطريق أهل الضلال والبدع بالعكس: يجعلون الألفاظ التي أحدثوها ومعانيها هي الأصل، ويجعلون ما قاله الله ورسوله تبعًا لهم، فيردونها بالتأويل والتحريف إلىٰ معانيهم، ويقولون: نحن نفسر القرآن بالعقل واللغة، يعنون: أنهم يعتقدون معنىٰ بعقلهم ورأيهم ثم يتأوَّلون القرآن عليه بما يمكنهم من التأويلات والتفسيرات المتضمنة لتحريف الكلم عن مواضعه؛ ولهذا قال الإمام أحمد: أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس"(١).

ومن أهم الأحوال التي ينبغي لنا إفرادها بالذكر والتنبيه: أن يكون المصطلح حاملًا للحق والباطل في ذاته؛ مما يؤدي إلىٰ تلبيس الحق بالباطل، وتضليل الناس عن الحق وكتمانه، كما فعلت اليهود والنصارىٰ حين أرادوا التضليل والتعمية، فنهاهم الله تعالىٰ عن ذلك بقوله: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

فخلط الحق بالباطل مذموم، ويسبّب كتمان الحق وضياعه بين الناس، كما أنه سبب انحراف أهل الكتاب وضلالهم، وسواء أعرف الباحث أو الكاتب أن ذلك المصطلح يتضمَّن باطلًا أو لم يعرف، وسواء أقَصد نشر ذلك اللبس أو لم يقصده، فإن هذا غير مؤثر ما دام أنه يؤدي

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٣٥٥).

إلى الإضلال والتحريف، وهذا ما حصل بالفعل في تاريخ الأمة، فحين ترجمت الكتب اليونانية وانبهر بها من انبهر، سواء بعلومها أو منظوماتها الفكرية أو قضاياها أو ألفاظها ومصطلحاتها، فانطلقت طائفة من العلماء يريدون صياغة الأدلة الدينية الشرعية ومسائلها بمصطلحات أولئك القوم، فصاغوها العلم الشرعي بمصطلحاتهم واستمدوا منهم الألفاظ، وصبغوها بالصبغة الشرعية؛ فالتبس الحق بالباطل، ودخل الفساد على الناس من ذلك الباب، سواء أكان الفساد في باب التصورات إذ ارتبطت بتصورات اليونان تبعًا لمصطلحاتهم، أو المعاني والتصديقات، وانشغلت الأمة بحل تلك الإشكالات، فهذا السبيل من سبل الفتنة في الدين، وإفساد التصورات العقلية واللسانية، والإشغال بما لا ينفع أهل الإسلام، بل ينفع أعداء الإسلام(١).

ولذا كرهه السلف رحمهم الله، فإن "السلف والأئمة لم يكرهوا الكلام لمجرد ما فيه من الاصطلاحات المولَّدة كلفظ الجوهر والعرض والجسم وغير ذلك؛ بل لأن المعاني التي يعبرون عنها بهذه العبارات فيها من الباطل المذموم في الأدلة والأحكام ما يجب النهي عنه؛ لاشتمال هذه الألفاظ على معان مجملة في النفي والإثبات، كما قال الإمام أحمد في

---

(١) ينظر: ضوابط استعمال المصطلحات العقدية والفكرية عند أهل السنة والجماعة، د. سعود العتيبي (ص: ١٢٥).

وصفه لأهل البدع، فقال: (هم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متفقون علىٰ مخالفة الكتاب، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويلبّسون علىٰ جهال الناس بما يتكلمون به من المتشابه).

فإذا عُرفت المعاني التي يقصدونها بأمثال هذه العبارات ووُزنت بالكتاب والسنة؛ بحيث يُثبت الحق الذي أثبته الكتاب والسنة، ويُنفي الباطل الذي نفاه الكتاب والسنة، كان ذلك هو الحق، بخلاف ما سلكه أهل الأهواء من التكلم بهذه الألفاظ نفيا وإثباتا في الوسائل والمسائل؛ من غير بيان التفصيل والتقسيم الذي هو الصراط المستقيم"(١).

وقد قصَّ علينا الإمام ابن القيم تاريخ الإغواء بالمصطلحات منذ الزمن الأول، وكيف كان التدرج شيئًا فشيئًا في هذا السبيل حتىٰ عزلوا الكتاب والسنة عن الحجية، ونصَّبوا أقوال الرجال مكانهما، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ينبغي للمفتي أن يفتي بلفظ النص مهما أمكنه، فإنه يتضمن الحكم والدليل مع البيان التام، فهو حكم مضمونٌ له الصواب، متضمن للدليل عليه في أحسن بيان، وقول الفقيه المعيَّن ليس كذلك، وقد كان الصحابة والتابعون والأئمة الذين سلكوا علىٰ منهاجهم يتحرون ذلك غاية التحري، حتىٰ خَلَفت من بعدهم خلوف

---

(١) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (٣/ ٣٠٧).

رغبوا عن النصوص، واشتقوا لهم ألفاظًا غير ألفاظ النصوص، فأوجب ذلك هَجر النصوص، ومعلوم أن تلك الألفاظ لا تفي بما تفي به النصوص من الحكم والدليل وحسن البيان، فتولَّد من هجران ألفاظ النصوص والإقبال علىٰ الألفاظ الحادثة وتعليق الأحكام بها علىٰ الأمة من الفساد ما لا يعلمه إلا الله، فألفاظ النصوص عِصمة وحجةٌ بريئة من الخطأ والتناقض والتعقيد والاضطراب، ولما كانت هي عصمة عهدة الصحابة وأصولهم التي إليها يرجعون كانت علومهم أصح من علوم من بعدهم، وخطؤهم فيما اختلفوا فيه أقل من خطأ من بعدهم، ثم التابعون بالنسبة إلىٰ من بعدهم كذلك، وهلم جرًّا.

ولما استحكم هجران النصوص عند أكثر أهل الأهواء والبدع كانت علومهم في مسائلهم وأدلتهم في غاية الفساد والاضطراب والتناقض.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سُئلوا عن مسألة يقولون: قال الله كذا، قال رسول الله ﷺ كذا، وفعل كذا، ولا يعدلون عن ذلك ما وجدوا إليه سبيلًا قط، فمن تأمل أجوبتهم وجدها شفاء لما في الصدور، فلما طال العهد وبعُد الناس من نور النبوة صار هذا عيبًا عند المتأخرين أن يذكروا في أصول دينهم وفروعه قال الله وقال رسول الله، أما أصول دينهم فصرحوا في كتبهم أن قول الله وقول رسوله لا يفيد

اليقين في مسائل أصول الدين، وإنما يحتج بكلام الله ورسوله فيها الحشوية والمجسمة والمشبهة، وأما فروعهم فقنعوا بتقليد من اختصر لهم بعض المختصرات التي لا يذكر فيها نص عن الله تعالىٰ، ولا عن رسول الله ﷺ، ولا عن الإمام الذي زعموا أنهم قلدوه دينهم، بل عمدتهم فيما يفتون ويقضون به وينقلون به الحقوق ويبيحون به الفروج والدماء والأموال علىٰ قول ذلك المصنِّف، وأجلّهم عند نفسه وزعيمهم عند بني جنسه من يستحضر لفظ ذلك الكتاب"(١).

◆

۞ واقع التيار الحداثي في حرب المصطلحات:

في التيار الحداثي نجد المساوئ والمخازي التي ذكرناها مجتمعةً، سواء أتكلمنا عن التعمية والغموض في الكلام، ولا ندري أكان ذلك بغية الهروب من المساءلة أم غير ذلك؟ أو تكلمنا عن الانبهار بالمصطلحات الدخيلة وتفضيلها وتقزيم المصطلحات القرآنية والنبوية والإعراض عنها، أو كان الحديث عن لبس الحق بالباطل وتضليل القارئ.

◆

---

(١) إعلام الموقعين (٦/ ٦٤).

أمثلة من كتابات أركون:

لا أظن أحدًا يختلف في أن أفضل من يصرِّح بحالة الرجل لسانه، فهذا أركون يصرِّح بغموض ألفاظه ومصطلحاته وأهمية استبدال المصطلحات القديمة (مصطلحات القرآن والسنة) بمصطلحات العلوم الحديثة (الغربية)، وينص عليه في كتبه، ويشكو من قلة من يفهم نصه، ويستاء من شكاوىٰ تلامذته فضلًا عن غيرهم من صعوبة جهازه المصطلحي والمفاهيمي كما يسمِّيه، ولكنه يبعد التهمة عن توليده المستمر للمصطلحات، ويضعها علىٰ عاتق الجهاز التعليمي والجهات المسؤولة عنها في الدول العربية، فيقول: "اكتشفت أن مستوىٰ التعليم الثانوي والجامعي بعيد جدًّا عما يجب أن يكون عليه، خاصة فيما يتعلق بعلوم الإنسان والمجتمع؛ ولذا فإن معظم الطلبة الذين قرؤوا كتبي يشكون من صعوبة فهم الجهاز المفهومي أو المصطلحي الذي أستخدمه وأواصل تجديده وإثراءه؛ انطلاقًا من النصوص والمؤلفات والتجارب الفكرية الإسلامية في الواقع، إن تلك الصعوبة لا تعود إلىٰ اتباعي لأسلوب معقد أو إلىٰ كثرة المصطلحات الغريبة المعنىٰ والنادرة الاستخدام، وإنما تعود إلىٰ انعدام الأرضية المفهومية والمعرفية الخاصة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية في اللغة العربية"(١).

---

(١) القرآن من التفسير الموروث إلىٰ تحليل الخطاب الديني (ص: ٨-٩).

هنا نجد أركون يُرجع تهمة الصعوبة في الفهم وعدم استيعاب القراء لمصطلحاته المتجددة دائما إلىٰ كون أولئك الطلبة لم يتوسعوا في المصطلحات الخاصة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية في اللغة العربية!!

فما تلك المصطلحات الخاصة بتلك العلوم؟ أهي مصطلحات ابن خلدون أم غيره؟!

دعنا نرجع مرة أخرىٰ إلىٰ أركون ليوضح لنا ذلك، فقد وضحها بعد ذلك حيث قال: "وإنما تعود إلىٰ انعدام الأرضية المفهومية والمعرفية الخاصة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية في اللغة العربية، أي: لغة التلقي التي ينقل إليها فكر الحداثة، ناهيك عن جميع ما يخص بحوث ومناقشات (ما وراء الحداثة)... لا يمكن إدراك المقاصد المعرفية الخاصة بفصل (المكانة المعرفية والوظيفة المعيارية للوحي) إذا كان القارئ بعيدًا أو غافلًا عما جرىٰ من مجادلات علمية ومناقشات فلسفية ولاهوتية حول ما أسميته بـ: (ظاهرة الوحي) في الأديان المرتبطة بالكتب المنزلة"⁽¹⁾.

لينتقل بعد ذلك ويبيِّن أننا نحن المخطئون حين لم نأخذ عن الغرب والشرق مصطلحاتهم، والتزمنا بالمصطلحات القرآنية والنبوية ومصطلحات أئمة الإسلام كالإمام الطبري، فيقول أركون: "إن مفهوم

---

(١) القرآن من التفسير الموروث إلىٰ تحليل الخطاب الديني (ص: ٩).

الوحي في السياق القرآني قبل انتشار (المصحف الرسمي المغلق) كان أكثر اتساعًا من حيث الآفاق والرؤية الدينية مما آل إليه بعد انغلاق الفكر الإسلامي داخل التفسير التقليدي الموروث عن الطبري ومن نقل عنه حتىٰ يومنا هذا، فقد أصبح الوحي بعدئذ منحصرًا فيما ورد في القرآن الكريم وحده؛ لأن المفسرين والمتكلمين والفقهاء انفصلوا عن القراءة التاريخية للوحي واكتفوا بالقراءة اللاهوتية الأرثوذكسية بالمعنىٰ السني والشيعي والخارجي، ولم يختلف في ذلك موقف اليهود والمسيحيين؛ إذ حرصت كل أمة أو ملة علىٰ احتكار الوحي الكامل الصحيح لنفسها لتبعد الملل الأخرىٰ عن فضل اصطفاء الله لها وحدها؛ ولذلك أصبح علم اللاهوت في الأديان الثلاثة المتنافسة ينحو نحو المماحكات الجدلية ونبذ الآخر أو طرده واستبعاده من فضل الاصطفاء الإلهي (أو من نعمة الاصطفاء الإلهي)"(١).

وفي نص آخر يعتب علىٰ الباحثين اقتصارهم علىٰ تراثهم الإسلامي في كتاباتهم وكونها منعزلة عن مقارنات اللاهوتيين والفلسفيين وغيرهم من غير التراث الإسلامي، ويصرح بضرورة استبدال المعجم المستعمل في الجامعات والمعاقل العلمية حيث يقول: "لا يزال معظم الباحثين (من

---

(١) المرجع نفسه.

المسلمين وغير مسلمين) يكتبون تاريخ الفكر الإسلامي بمعزل عن التاريخ المقارن للأديان والأنظمة اللاهوتية والفلسفية. وقد بينت أن كلود كاهين والباحثين الذين يشاركونه في استشارتهم بضرورة نقد المصادر القديمة قبل استعمالها لكتابة التاريخ، يتبنون المعجم الخاص بالسياسية الشرعية، دون أن يقارنوه بمعجم اللاهوت السياسي المشترك للأديان المنزلة، ثم بمعجم الفلسفة السياسية الحديثة قبل وبعد انفصاله عن المعجم اللاهوتي القديم الذي لا يخلو منه أي دين من الأديان. ومن المعلوم أن هذا الثاني قد انتصر علىٰ الأول في أوروبا. ويمكن الجزم هنا أيضًا بأن الإطار المعرفي الذي يتشبَّث به الباحثون في الفكر الإسلامي والدارسون للمجتمعات المنعوتة بالإسلامية لا يزال مرتبطًا ومتأثرا بالإطار المعرفي الإسلامي الموروث أكثر مما هو مرتبط بما كنت قد دعوته بالعقل الاستطلاعي أو المستقبلي (La raison emergente). وأقصد به العقل الحديث الذي يطمح إلىٰ التعرف علىٰ ما منع التفكير فيه، وأبعد عن دائرة الاستطلاع والاستكشاف؛ لكي تبقىٰ مشروعية أنواع السلطة وقداسة أنواع الحاكمية مؤثرة في الخيال الديني والسياسي تأثيرا ميثولوجيًا تقديسيًا تأليهيًا، مهما كانت الظروف التاريخية والأطر الثقافية والبيئات الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية"⁽١⁾.

---

(١) قضايا في نقد العقل الديني (ص: ٨).

وتبعًا لمشروعه وهدفه الذي صرَّح به -ألا وهو التاريخية أو أرخنة الإسلام كما يحلو له أن يسميه- فإن قضية توليد المصطلحات تعتبر من الأمور الجوهرية في مشروعه ولا غرو؛ إذ مشروعه "عملية متكرّرة من الأسطرة والأدلجة لما كان الإسلام العباسي قد حوّره أصلا وحوله إلىٰ لحظة تدشينية للإسلام بصفة: (الدين الحق)"(١)، ويقول في نص آخر: "أرخنة كل ما كانت قد نزعت منه صبغة التاريخية علىٰ نحو متواصل ومنتظم علىٰ مدار التاريخ"(٢). ويوضح في نص آخر مشروعَه: "مشروعا علميا شموليًا، جماعيًّا، يخترق كل الخصوصيات الثقافية والعلوم الضيقة ويتجاوزها. إنه المشروع الذي يهدف إلىٰ القراءة التحليلية، المقارنة، الاسترجاعية-المستقبلية أو التراجعية-التقدمية لكل أنظمة الفكر والتراثات الثقافية المكتوبة أو الشفهية، والتي كانت قد انتشرت وترعرعت وتنافست من حوض البحر الأبيض المتوسط"(٣).

إذن، المصطلحات القرآنية والنبوية والمصطلحات التي تركها لنا أئمة العلم ليست -بزعمه- كافية في بيان الدين الإسلامي، بل علينا

---

(١) المرجع نفسه (ص: ٣٢).

(٢) القرآن من التفسير الموروث إلىٰ تحليل الخطاب الديني (ص: ٨٢).

(٣) قضايا في نقد العقل الديني (ص: ٤٦-٤٧).

السعي وراء مصطلحات التلقي التي ينقل إليها فكر الحداثة كما يسميها أركون، ومصطلحات العلوم الحديثة التي أسستها الحداثة لنفهم الدين الإسلامي على الوجه الصحيح.

ولننتقل بعد هذا إلى كتابات أركون؛ إذ لا شك أننا سنقف على جانب من تلك المصطلحات، ولم نذهب بعيدًا في بحث هذه القضية، وقد مرت معنا مجموعة من النصوص، فلنرجع إليها لنجد أمامنا كمًّا هائلًا من المصطلحات من أمثال: (ما وراء الحداثة، المكانة المعرفية والوظيفة المعيارية، ولاهوتية، المصحف الرسمي المغلق، التفسير التقليدي، القراءة التاريخية للوحي، القراءة اللاهوتية الأرثوذكسية للوحي، علم اللاهوت، العقل الاستطلاعي، ميثولوجيا، الأدلجة، التاريخية، الأرخنة، القراءة التحليلية الاسترجاعية-المستقبلية أو التراجعية-التقدمية). لا شك أن القارئ وإن كان متضلّعَ الباع في العلوم الشرعية والمصطلحات الإسلامية سيحتاج إلى البحث عن المراد بهذه المصطلحات والخوض في معانيها، وهو ما يعيق كثيرًا من الناس عن فهم نصوص أركون كما صرح به هو بنفسه.

قد يقول قائل: إنما ذلك حال شيء يسير من كتاباته، ومع تناولنا نصوصًا من كتابين من كتبه فلعلنا نأخذ نصوصًا أخرى من كتاباته تؤكد لنا أن هذه الحالة (توليد المصطلحات) سمة من سماته.

فمثلًا ينتقد أركون خصيصة الشمول التي يتميز بها الدين الإسلامي، وكونه نظامًا للحياة في جميع جوانبها، وعدم إغفاله لشيء من حاجاتها، يقول أركون: "من تأثير الإسلام إلىٰ درجة أنهم يجعلونه يشمل كل شيء، ويتدخَّل في كل شيء، وهكذا يحوِّلونه إلىٰ أقنوم هائل مهيمن يمكن عن طريقه تفسير كل ما يحدث في العالم الذي انتشر فيه هذا الدين"(١).

لن نناقش هنا قضية الشمول؛ إذ ليس هو مجال البحث هنا، ولكن ما علاقة مصطلح (أقنوم) بالفضاء الإسلامي ليقحم فيه؟!

وفي موقف آخر ينتقد فيه انقياد المسلم لأقوال الله وأقوال رسوله ﷺ وخضوعه لأمر الله يقول: "يطلب منه [أي: المؤمن] الخضوع للشعائر والعبادات الدينية التي تجعله يتقمَّص من الداخل كل النظام النفسي والمعنوي والاجتماعي والسياسي للتراث المقدس، وفق المعنىٰ الكيميائي والجسدي لكلمة تقمّص، وهكذا يترسَّخ التراث الأرثوذكسي مع مرور الزمن، ويصبح مقدَّسًا، ومن ثم فلا تمكن مناقشته أو طرح الأسئلة عنه أو الكشف عن تاريخيته"(٢).

---

(١) المرجع نفسه (ص: ٧٦).

(٢) المرجع نفسه (ص: ٢٣٣).

وبعيدًا عن النقاش في مسألة الانقياد، فما علاقة (التراث المقدس، المعنىٰ الكيميائي والجسدي لكلمة تقمّص، التراث الأرثوذكسي) بالقضية؟! وما دلالاتها؟! ولم علينا إقحامها في الفضاء الإسلامي وفيه من المصطلحات الكثيرة الدالة علىٰ المعاني التي يقصدها من هذه المصطلحات الدخيلة؟!

وفي نقاش آخر في تصوّر الألوهية والإيمان بالله ﷻ نجده يقول: "في مرحلة القرآن كان مطلوبًا إدراك الله وتصوّره بمثابة فاعل أو نموذج حاضر باستمرار في الحياة اليومية للنبي والمؤمنين، ولكن هذه الصورة أو هذا التصوّر سوف تتطوَّر وتتغير في مراحل لاحقة، وذلك في عدة اتجاهات: الثيولوجي الكلامي والصوفي والفلسفي والشعبي ثم العقلاني اليوم، علىٰ عكس ما تظنّ المسلمة التقليدية التي تفترض وجود إله حيّ متعال وثابت لا يتغير، فإن مفهوم الله لا ينجو من ضغط التاريخية وتأثيرها، أقصد أنه خاضع للتحوُّل والتغيّر بتغير العصور والأزمان"(١).

ويقف ذهن كل قارئ هنا عند قوله: (المسلمة التقليدية التي تفترض وجود إله حي، مفهوم الله لا ينجو من ضغط التاريخية، إله خاضع للتحوُّل والتغيّر بتغير العصور والأزمان)! كل تلك

---

(١) الفكر الإسلامي: قراءة علمية (ص: ١٠٢).

المصطلحات والتراكيب بحاجة إلىٰ شرح وتوضيح، ولا ندري منذ متىٰ صار يسمَّىٰ المسلم الذي يؤمن بوجود إلهه تقليديًّا؟! ومن المسلم غير التقليدي؟ أهو الذي لا يتصوَّر وجود إله حيّ؟!

أسئلة كثيرة تقتضيها هذه الكلمات، ولكنه هوس توليد المصطلحات الذي أسلفنا الحديث عنه آنفًا.

ولكن الأدهىٰ والأمر أن يتلو هذا الهوسَ في توليد المصطلحات -الذي يشكو هو من غموضه وعيِّه- نقدٌ للمصطلح القرآني الذي نزل بلسان عربي مبين، يقول أركون: "إنه لدىٰ فكر معاصر متعوّد اتباع نوع معين من البرهان، والإيحاء والوصف والسرد في نصوص يجري إنشاؤها بحسب مخطط صارم، فإن القرآن مدعاة للنفور بعرضه غير المنظم، واستخدامه غير المعتاد للخطاب، ووفرة إيحاءاته الأسطورية والتاريخية والجغرافية والدينية، وكذلك بتكراره، وانعدام ترابطه، واختصارًا بمجموعة كاملة من الرموز التي لم تعد تجد البتة دعائم ملموسة، سواء في طرق تفكيرنا أم في محيطنا الطبيعي والاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي"(١).

---

(١) الوحي: الحقيقة، التاريخ.. نحو قراءة جديدة للقرآن، (ص: ٣٤). وهذا المقال قد وضع مقدمة لترجمة كازيمرسكي للقرآن الكريم سنة ١٩٧٠م، كما أعيد نشره في كتاب: قراءات في القرآن، سنة ١٩٨٢م.

ويقول: "نعلم أن القرآن يظلّ مستغلقًا وغير مفهوم للمؤرّخين أو المثقفين الأكثر تخصصًا وتبحرًا في العلم، فما بالك بجمهور المؤمنين؟! ولا أحد يفكر في شرحه أو تفسيره بناءً على المناهج الحديثة من أجل تقريبه من الأذهان والعقول"(١).

فكيف يصح ممن يشكو تلامذته من لغته أن يصم لغة القرآن بالنفور وانتفاء الانتظام، وقد عجزت الجن والإنس أن يأتوا بآية من مثله؟!

كيف يصحّ ممن يستعصي جهازه المصطلحي أن ينتقد المصطلحات القرآنية بأنها غير معتادة في الخطاب، أو أسطورية أو غير مترابطة، أو أنها لغة رمزية تحتاج إلىٰ مفكٍّ لشفراتها؟!

أم كيف يصحّ ممن يعاني من العيّ أن يعيِّر كلام الله بالعيِّ، تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

◆

أمثلة من كتابات الجابري:

وإن اختلف المجال الذي كرس فيه أركون مشاريعه عن غيره من الحداثيين، إلا أن سمة توليد المصطلحات ظلَّت حاضرة في أقلامهم وكتاباتهم، فنجد الجابري ينظِّر لبدعية مصطلح الأصل ويؤكد أنها لم تكن

---

(١) قضايا في نقد العقل الديني (ص: ٥٩).

معهودة فيما قبل عصر التدوين، يقول: "يمكن الاطمئنان إلىٰ أن الزوج الأصل الفرع إنما ظهر في عصر التدوين كأداة نظرية لا بد منها في عملية التدوين ذاتها، عملية البناء العام للثقافة العربية الإسلامية"(١).

إلىٰ أن قال: "المظاهر الأساسية التي تتجلَّىٰ فيها خصوصية العقل البياني -والتي بها يتميز- أن عملية التفكير في هذا العقل محكومة دومًا بأصل، وبعبارة أخرىٰ: إن العقل البياني فاعلية ذهنية لا تستطيع ولا تقبل ممارسة أي نشاط إلا انطلاقًا من أصل معطىٰ نص، أو مستفاد من أصل معطىٰ ما ثبت بالإجماع أو القياس، ليس هذا فحسب، فسلطة الأصل علىٰ العقل البياني لا تقتصر علىٰ المنطلق، بل إنها تؤسّس عملية إنتاج المعرفة ذاتها باعتبار أن التفكير البياني يقوم أساسًا علىٰ قياس فرع علىٰ أصل، فهو سلسلة من عمليات رد الفروع والمستجدات إلىٰ أصول مقررة من قبل"(٢).

وهنا لن تخطئ العين مجموعةً من تلك المصطلحات الغامِضة مثل: عملية البناء العام للثقافة العربية الإسلامية، وما الذي يقصد بذلك؟ أهو تأسيس العلوم الإسلامية في عصر النبوة؟ وما العقل البياني؟ وما الذي يقابله من العقول؟

---

(١) بنية العقل العربي (١٠٩).

(٢) المرجع نفسه (١١٣).

❖ أمثلة من كتابات أبو زيد:

وأما نصر أبو زيد فمن نصوصه التي تظهر فيها هذه السّمة، ولعلنا نترك النصوص القادمة للقارئ ليقف بنفسه علىٰ تلك المصطلحات، فمنها قوله: "القرآن نص مقدَّس ثابت منطوقه، لكنه يصبح مفهومًا بالنسبي والمتغير، أي من جهة الإنسان، ويتحول إلىٰ نص يتأنّس، فالنص منذ نزوله الأولي -أي: مع قراءة النبي ﷺ لحظة الوحي- تحول من كونه نصًّا إلهيًّا وصار فهمًا إنسانيًّا؛ لأنه تحول من التنزيل إلىٰ التأويل"(١).

ويقول في موضع آخر: "إن الحقائق الأمبيريقية المعطاة عن النص تؤكّد أنه نزل منجَّمًا علىٰ بضع وعشرين سنة، تؤكد أيضا أن كل آية أو مجموعة من الآيات نزلت عند سبب خاص استوجب إنزالها"(٢).

ويقول في موضع ثالث: "إن الدعوة للتحرُّر من سلطة النصوص ومن مرجعيَّتها الشاملة ليست إلا دعوة لإطلاق العقل الإنساني حرًّا؛ يتجادل مع الطبيعة في مجال العلوم الطبيعية، ويتجادل مع الواقع الاجتماعي والإنساني في مجال العلوم الإنسانية والفنون والآداب، فهل تتصادم هذه الدعوة مع النصوص الدينية أم تتصادم مع السلطة التي أضفاها العقل والفكر؟ إن هذه الدعوة للتحرُّر لا تقوم علىٰ إلغاء

---

(١) نقد الخطاب الديني (٩٣).

(٢) مفهوم النص (ص: ٩٧).

الدين، ولا تقوم على إلغاء نصوصه، لكنها تقوم على أساس فهم النصوص الدينية فهمًا علميًا"⁽¹⁾.

فهنا جملة من المصطلحات التي مرت بنا في هذه النصوص مثل: نص مقدس، النسبي والمتغير، فهما إنسانيًا، التنزيل، التأويل، الحقائق الأمبيريقية، سلطة النصوص.

◆

أمثلة من كتابات تيزيني:

وممن كانت هذه السمة حاضرة أيضًا في كتاباته طيب تيزيني، في مثل قوله: "وعلى هذا فإن ما يبرز أساسيًّا هنا يكمن في النظر إلى اللاحق مضبوطًا بما نتواضع عليه، من الآن فصاعدًا، بالحد الاصطلاحي (الوضعية الاجتماعية المشخصة)، أما ما تتقوّم به هذه الوضعية فيتمثل في أنها تعبر عن منظومة من العلاقات والمؤسسات السوسيوثقافية والاقتصادية، التي تحدّد بدورها وتضبط بصيغ أولية وعمومية شبكة الأفعال والتأثيرات والمؤثرات المتحدّرة عن النشاط المنهجي المعرفي والإيديولوجي والسياسي للأفراد والمجموعات في مجتمعٍ ما ومرحلة تاريخية ما"⁽²⁾.

---

(١) المرجع نفسه (ص: ١٠٢).

(٢) النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة (ص: ١٩).

ومن نصوصه أيضًا: "إن ذلك من منظور السلفوية، حيث يوضع ذلك الموضع، فإنه يغدو أكثر من ذاته أولا، وأكثر من ذاته وذوات الأزمنة كلها مجتمعة ثانيا؛ ذلك لأن الماضي المذكور -بحسب الموقف المعني- ليس هو الماضي الواقعي المشخص والمندرج في حركة الوجود الكلية، بل هو ما يتعالىٰ علىٰ هذه الحركة تعاليا يجعله يتنصل منها وينسل من طرف، ليعلن نفسه محورًا كليا وشاملا لها من طرف آخر، وهذا بدوره ينطوي علىٰ مفارقة وجودية ومنطقية، لا يمكن التحلل منها إلا من موقع ذلك الموقف المحدد بالمصادرة علىٰ المجتمع والتاريخ والتراث"(١).

وفي نص آخر يبلغ الأمر بتيزيني إلىٰ أن يدَّعي بكل وقاحة أن الرسول ﷺ هو «أول من موضعه [أي: القرآن] بشريًا، وبشّر به تاريخيًا متورّخا، واستعان إدراكه في البدء بالسيدة خديجة، وبعمها أو ابن عمها ورقة بن نوفل». لكن هذا البعد التاريخي للنصوص «قد جرىٰ التنكر له من قبل جموع متعاظمة من الفقهاء والمحدثين السلفويين، وكذلك الجمهور العام»(٢).

---

(١) المرجع نفسه (ص: ١٢).

(٢) المرجع نفسه (ص: ٣٦١).

ولا أشكّ أن هنا كثيرًا من المصطلحات التي استوقفتك -أخي القارئ- إن كنت معتنيًا بذلك حين قراءة النص، فعلىٰ سبيل المثال: الوضعية الاجتماعية المشخصة، السوسيوثقافية، حركة الوجود الكلية، السلفوية، الماضي الواقعي المشخص...

هذا إلىٰ صعوبة التراكيب والفهم لتلك النصوص الناتج عن التوليد المصطلحي والغموض المقصود أو غير المقصود.

ولنختم بهذه النصوص ليرتاح العقل بعد محاولة فهمها:

يقول طيب تيزيني: "فتتقوم بالاعتقاد بإمكانية النكوص إلىٰ الماضي الإسلامي (الباكر خصوصًا)، والعودة إليه علىٰ نحو يظهر الحاضر فيه لحظة من لحظات الانحدار والانحراف عن هذا الماضي. وعبر مزيد من الضبط والتدقيق للوقف، نلاحظ أن هذا الأخير يرتدّ إلىٰ التصور الإسلامي ذي النزوع السلفوي حول التاريخ، وينطلق منه، فالتاريخ بمقتضىٰ ذلك يتمثل في حركة ثلاثية الأبعاد يكون منها (وهو الإسلام) هدفا للأول (وهو ما قبل الإسلام الجاهلية)، وطموحا لبلوغه في حين يتجلىٰ الثالث (وهو ما بعد الإسلام) بصفته خروجًا عن الثاني وانحرافا. أما البعد الثاني -وقد حددناه بالإسلام- فهو ذلك الذي يمثل جماع القول في الوجود جوهرا وكمالا قدسيّة، وعلىٰ هذا

فإذا كان الأمر على صعيد القاعدة الأولى من إوالية الاعتقاد السلفوي قد تحدّد بتصور استجلاب الماضي الإسلامي وإعادته في الحاضر الراهن (راهن السلفوي) عبر خلق دولة إسلامية أو مجتمع إسلامي، خال من الجاهلية المعاصرة جاهلية القرن العشرين بتعبير السلفوي نفسه، أي: على مثال المجتمع الإسلامي الباكر، فإن القاعدة الثانية من هذه الإوالية تتمثل في نكوص ماضي إلى الماضي الإسلامي المعني عبر التأكيد على ضرورة الانخراط في مواقف المجتمع الإسلامي الباكر وتصوراته ومشكلاته وحلوله وتوجهاته المرحلية والإستراتيجية، التي جسدت المثل العليا التامة تصور التمامية للمجتمع البشري عموما وإطلاقا، بالرغم من المحدودية الجغرافية والتاريخية لمصدرها المثل بذلك المجتمع الإسلامي الباكر.

وفي هذه الحال الثانية يغدو الاتجاه الأساسي ماثلا في استحداث وضعية روحية جوانية تحيل إلى المواقف والتصورات إلخ.. المذكورة آنفا، طلبا لمددها وتحصنًا بها ضد كوابيس الحاضر المنحرف دينيا واجتماعيًّا وجنسيًّا وأخلاقيا إلخ... وعلى هذا الصعيد لا يكون الأمر متعلقا بالدعوة إلى إيجاد مجتمع إسلامي أو دولة إسلامية بقدر ما ينحصر في أساسه وعمومه في تحقيق الاحتماء بتلك

المبادئ والمثل، وبما ينسج حولها من تحصين ذاتي وبلوغ لأهداف الإسلام الأول الصحيح، ومن الملاحظ أن هذا الموقف غالبا ما ينطلق من حاجات فردية، أو فئوية متشظية فرديًّا؛ لتحقيق خلاص فردي، قد يؤدي إلىٰ صوفية نظرية أو طقوسية، أو إلىٰ كلتيهما معا"(١).

ويقول في موضع آخر: "وإذا تتبعنا صيغة العودة إلىٰ الإسلام الباكر لاحظنا أنه يجري التنظير لها من موقع تمييز ميتافيزيقي لا تاريخي بين الحقيقة والتاريخ والثابت والمتغير والمطلق والنسبي، ومن ثم بين الوحي الإلهي والعالم أولا، وفي ضوء رؤية انحدارية فاجعية للزمن التاريخي ثانيا، ولعل فهمي جدعان أن يكون واحد من ممثلي هذا الموقف بشقَّيه المذكورين فهو يكتب ما يلي: فالحقيقة تنتمي أصلا إلىٰ عالم الأزل والأبدية الذي يفارق تمامًا وقائع التاريخ ويعلو عليه، ولا يخضع لقانون الصيرورة الصارم، وهي حين تتجسَّد في الإنسان فإنما تعانق الزمان وتحلّ فيه"(٢).

◆

---

(١) المرجع نفسه (ص: ٢٠).

(٢) المرجع نفسه (ص: ٣٢).

الخاتمة:

نستخلص مما سبق أن من أهم السمات التي لا يكاد ينفك عنها التيار الحداثي سمة التوليد المصطلحي، والذي يرنو في الغالب إلىٰ الغموض والتعمية، أو إلىٰ ترك أطواق النجاة مشرعة في قاع البحر، ولم يكن ذلك حالة استثنائية لدىٰ واحد أو اثنين كما رأينا، بل هي السمة الغالبة في كتاباتهم، والاصطلاح وإن كان لا مشاحة فيه، ولكن لا بد من المشاحة فيما كان فيه صد عن مصطلحات القرآن والسنة، أو لبس الحق بالباطل، أو كان وسيلة للتعمية والغموض.

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه، وسلم تسليمًا(١).

* * *

---

(١) إعداد: عمار محمد أعظم.

(٤)

من تقنيات الحداثة

نَقـضُ الغَـزل

كانت امرأة بمكة المكرمة قد اتخذت الغزْل شغلًا لها، فعملت مغزلًا تغزل الصوفَ والشعر والوبر، فاتخذت لذلك ما شاء الله لها من الجواري، فكنَّ يجمعن الصوفَ والشعَر والوبر، وتغزل هي وجواريها من بداية اليوم حتىٰ نهايته، ويبذلون جهدَهم وطاقتهم في فتل الصوفِ خيوطًا.

ولكن هذه المرأة كان في عقلِها شيءٌ، وكانت كثيرةَ الوسوسة، ومن ذلك أنها كانت بعد استنفادها طاقتَها وجهدها في العمل الشاقّ تحلّ كلَّ ذلك الغزل وتنقضه وتفسِده وتردُّه خيطًا كما كان أوَّلَ الصباح.

لا شكَّ أن كلَّ من منحه الله شيئًا من العقل ينفر من هذا التناقض، ويتَّعظ بهذه القصة التي ضرب الله بها المثل في كتابه الكريم حيث قال منفِّرًا من حالها: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢](١).

---

(١) ينظر: جامع البيان (١٧/ ٢٨٣)، تفسير البغوي (٥/ ٤٠).

وهذا التناقض يرفضه كلُّ ذي عقل، ولكننا نجده سمةً من سمات الحداثيِّين، ومنهجًا لهم وطريقة، فمن تناقضاتهم -وهو ما يحصل غالبًا مع من يتَّبع هواه- أنهم يأخذون بالنصوص التي توافق أهواءَهم وأغراضهم، ويخلعون عليها أوصافَ الثبوت والحجِّيَّة، بينما هم ينقضون نصوصًا شرعية أخرىٰ بدَعوىٰ عدم ثبوتها أو نسبيَّتها أو عدم حجيتها!

وفيما يلي بعض الأمثلة التي توضِّح ذلك:

۞ من تناقضات العشماوي:

نجد مثلًا العشماوي وهو يتحدَّث عن عظمةِ الأحكام الإسلامية يخلَع عليها أوصاف السموِّ والقِيَميَّة التي تعطي للقارئ انطباعًا بعموميَّتها وإطلاقها، وأنها هي التي صنعت الأمة وارتَقت بها إلىٰ أعالي مراتب الهدىٰ ودرجات الرقيّ والازدهار، واستعرض بعضَ الأحكام والقيم الإسلاميَّة، يقول العشماوي: "إنَّ عظمة الأحكام الإسلامية أنها قدَّمت أرقىٰ المبادئ وأسمىٰ القِيَم، فارتقت بمجتمعات العصور الوسطىٰ ارتقاءً مذهلًا... فكانت فتحًا للإنسان وهدىٰ للإنسانية"، ثم يقول ممثِّلًا علىٰ ذلك: "مبدأ احترام المرأة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]"(١).

---

(١) أصول الشريعة (ص: ١٥٢).

بيد أنَّ العشماوي هو صاحب الدعوة المعروفة بإنكار العموم ودعوىٰ أنَّ كلَّ آية في القرآن لها سببُ نزول، يقول: "فأحكام التشريع في القرآن ليسَت مطلقةً، ولم تكن مجرَّد تشريع مطلَق"(١)، "يعني أنَّ كل آية تتعلَّق بحادثةٍ بذاتها، فهي مخصَّصة بسبب التنزيل، وليست مطلقةً"(٢).

فكيف تكون الأحكام الإسلاميَّة قدَّمت أرقىٰ المبادئ وأسمَىٰ القيم، ثم هذه الأحكام ليست مطلقةً، وليست عامَّة لكل المسلمين، وإنما هي خاصةٌ بمن نزلت فيهم؟! هذا تناقض بيِّن.

وفي موضعٍ آخرَ تناقضٌ آخر مع هذا الذي طرَحه من أنَّ الأحكام الإسلامية هي منِ ارتقت بالمجتمعات ارتقاء مذهلًا، وهو أنه يرىٰ أن الواقع هو الأصل، وهو الذي دارت الشريعة فيه، وتناسجت معه، وأخذَت منه عوائدَه وأعرافَه، يقول العشماوي: "الشريعةُ إنما ارتبَطت بالواقع، ودارت فيه، وتناسجت به، تأخذ منه عوائده وأعرافه، وتُحكم قواعدَها علىٰ أسبابٍ منه، وتلاحِق أحكامُها تطوُّرَه"(٣).

فكيف يتَّفق هذا وقولَه أولًا بأن الشرع هو الذي ارتقىٰ بالمجتمع؟! وكيف يتفق هذا وقوله: "لقد استهدفتِ الشريعة تغيير

---

(١) معالم الإسلام (ص: ١٢٠).

(٢) الإسلام السياسي (ص: ١٥).

(٣) أصول الشريعة (ص: ٨٩).

ظروفِ المجتمع وتبديل روابطه وتجديد علاقاته... وأدَّت إلىٰ تغيير شاملٍ في الروابط الاجتماعية، وإلىٰ تبديل كامل في علاقات الناس بعضهم ببعض وبالكون"(١)؟!

ونجد العشماويَّ في موضع آخر يؤكِّد علىٰ عموم الآيات التي نزلت في أهل الكتاب، ونهت عن الغلوِّ في الدين؛ كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧]؛ لأنها تفيده في محاربة من يصفهم بالتطرُّف والغلوِّ، فيقول: "وفي خطابِ أهل الكتاب بالقرآن ما قد يعتبر مثلًا للمؤمنين: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾"(٢).

وبعد صفحات من نفس الكتاب الذي تكلَّم فيه عن هذا العموم في النصِّ الشرعي حين يحذِّر من عدم الحكم بما أنزل الله فيقول: "ومؤدَّىٰ الرأي الصحيح -الصادر عن النبي ﷺ وعن المفسِّرين العمد الثقات- أن آيات القرآن: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] إنما نزلت في أهل الكتاب... وليس لأمَّة الإسلام منها شيء"(٣).

---

(١) أصول الشريعة (ص: ٨٩).

(٢) معالم الإسلام (ص: ٥٦).

(٣) معالم الإسلام (ص: ٦٠).

بيد أنه ينفي هذا العموم عن النصوص التي نزلت في وصف من يحكم بغير ما أنزل الله بالكفر أو الفسق أو الظلم، ويزعم أنها خاصَّة بأهل الكتاب وحدَهم، ولا يصحُّ تعميمها في حقِّ سائر المسلمين، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فهذه الآية علىٰ حسب زعمه تخاطب أهلَ الكتاب ولا علاقةَ لها بالمسلمين.

وفي ذات الكتاب نجد العشماويَّ يقبل بتعميم الأحكام الأخلاقيَّة التي نزلت في أهل الكتاب، فهذه الأخلاقُ وإن نزلت في أهل الكتاب فهي عامَّة تشمل غيرهم من المسلمين، ومن لا يفهم ذلك فليس لعقله مكان في رأسه، يقول: "إن الأحكام الأخلاقية في القرآن ولو كانت لغير المسلمين يمكن أن تكون مثلًا يتَّبعه المسلمون... ولا بأس بجعلها مثلًا يحتذىٰ... وخاصة أن الناس عمومًا تتبع القواعد الأخلاقية والمثل الإنسانية مهما كان مصدرها، ومهما يكن شخص قائلها، ولا يمكن أن يقول عاقل: إنه يتعيَّن علينا أن نخالف أخلاقيات رفيعة أو مثاليات سامية؛ لأن غيرنا يتبعها، أو لأن غيرنا قائل بها سائر عليها"⁽¹⁾.

بيد أننا نجد العشماوي نفسه ينكر ويشنِّع علىٰ من يقول بتعميم الأحكام التي نزلت لأسباب معيَّنة أو لها أسباب نزول، وسواء كان

---

(١) معالم الإسلام (ص: ١٨٩).

ذلك حكمًا أو قاعدة أو حتىٰ نظامًا أخلاقيًّا، فيقول: "كل آيات القرآن نزلت علىٰ الأسباب -أي: لأسباب تقتضيها- سواء تضمَّنت حكمًا شرعيًّا أم قاعدة أصولية أم نظمًا أخلاقية"(١).

وهذا التناقض في الموقف الواحد والقضية الواحدة -بل وأحيانا في نفس الكتاب- غير معقول، وغير مقبول أن يتبنىٰ الرجل شيئًا في موضع ثم هو ينقضه ويهاجمه كما كانت تفعل المرأة الخرقاء الحمقاء التي نزل فيها قول الله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا ﴾ [النحل: ٩٢].

والعشماوي ليس متفرِّدًا بهذا الأمر، بل هو سمة من سمات الحداثيين كما أسلفنا، ومنهم حسن حنفي.

◆

من تناقضات حسن حنفي:

يكفينا في بيان تناقضاته أنه قد شهد بذلك شاهد من أهلها، فقد تذمَّر هاشم صالح من هول ما في أطروحات حسن حنفي من التناقضات حيث يرىٰ أنه: "قال الشيء وضده عن كل شيء تقريبًا: عن الدين، والتاريخ، والإسلام، والاستشراق، والوحي، والفقه، والشريعة، والحضارة

---

(١) جوهر الإسلام (ص: ١٤٨).

الأوروبية... فبإمكانك أن تجد عند حسن حنفي الأطروحة ونقيضها في كل موضوع من الموضوعات المطروقة، فهناك حسن حنفي الحداثيّ جدًّا، وهناك حسن حنفي التراثيّ جدًّا، ولك الخيار، وإن كانت الغلبة للثاني بالطبع، فالمفكر المصري المعروف يدافع أحيانًا عن الانفتاح، ويدافع أحيانًا أخرىٰ عن السلفية والانغلاق، من دون أن يشعر بأنه ارتكب خطيئة أو ذنبًا، ويدافع أحيانًا عن نظرية فويرباخ الخاصة بالدين، ثم سرعان ما ينقضها، ويدافع عن الفقهاء ثم سرعان ما يهجوهم، ويدافع عن العقيدة الغربية في بعض النصوص ثم يُسخِّفها ويقلِّل من أهميتها في نصوص أخرىٰ عديدة، ويدافع عن المنهج التاريخي للمستشرقين، ثم يرتد عليه لاحقًا، وهكذا دواليك"(١).

وهذا ما أدهش جورج طرابيشي، ودفع بقلمه إلىٰ إفراد كتاب مستقل بعنوان: "ازدواجية العقل"، رصد فيه تناقضات حسن حنفي، وأباح له أن يقول في مقدمته كلامًا يخرج حسن حنفي من قائمة العقلاء، يقول: "أول ما يلفت النظر وأكثر ما يلفت النظر في كتابات حسن حنفي قدرة كاتبها شبه اللامحدودة علىٰ مناقضة نفسه، فهو لا يضع قضيَّة إلا لينفيها، ولا يبدي رأيًا إلا ليقول بعكسه، وهذا ما أباح لأحد نقاده أن يتطرف في القول إلىٰ حد التجريح، فيتساءل عما إذا كان

---

(١) الانسداد التاريخي (ص: ٢٦٨-٢٦٩).

في قدرة قارئ حسن حنفي أن يظل محتفظًا بقواه العقلية سليمة بعد أن يتراقص مع كاتبنا في حلقة المتناقضات الجنونية، التي تدور فيها معالجته للموضوع"(١).

ثم يقول طرابيشي: "فما من كاتب مفكر أتقن رقصة المتناقضات كما أتقنها حسن حنفي، وهذا ليس فقط بين مؤلف وآخر، أو بين طور سابق وطور لاحق من أطوار التطور الفكري، التي يكاد يكون من المحتم أن يمر بها كل كاتب في عصر التقدم والتقلب السريعين للأيديولوجيات وللأنظمة المعرفية هذا، بل كذلك بين فصول الكتاب الواحد، وأحيانا بين صفحات الفصل الواحد، دونما أي اعتبار للفاصل الزمني، ولعله لا يكفي أن نقول: إن وحدة الأضداد هي المناخ العام الذي تسبح فيه كل كتابات حسن حنفي، بل ربما كان من الضروري أن نضيف أن وحدة الأضداد تلك هي التي تصنع وحدة شخصيته ككاتب ومفكر، فكما يفكر كتاب آخرون بواسطة الاستدلال أو الحدس أو الشطح أو المفارقة، يفكر حسن حنفي بواسطة التناقض... فإن كتابات حسن حنفي تنفرد بميزة لا مماراة فيها، فهي لن تحيجنا(٢) إلىٰ الدخول في أي نقاش أو حجاج مع كاتبها؛ لأن حسن

---

(١) ازدواجية العقل.. دراسة تحليلية نفسية لكتابات الدكتور حسن حنفي (ص: ٩)، نقلا عن: مستقبل الأصولية الإسلامية، مجلة فكر، العدد الرابع، ١٩٨٤م.

(٢) هكذا في المطبوع.

حنفي هو الذي يتولىٰ الرد في كل مرة علىٰ حسن حنفي!... لو شئنا حصر كل تناقضات حسن حنفي في كتاباته، لكان علينا أن نعيد كتابة جميع مؤلفاته تحليلًا وتلخيصًا ومقابلة، وهو أمر ننوء به فضلًا عن أنه سيكون مبعث سأم شديد للقارئ"(١).

ونحن لو شئنا سرد أمثلة تلك التناقضات لطال بنا المقام، ولكن قد كفانا طرابيشي مؤونة ذلك في كتابه.

والمقصود: بيان تناقضات أهل الباطل من الحداثيين وغيرهم، فكل من ابتعد عن كتاب الله تعالىٰ والتمس الهدىٰ في غيره فلن يزداد إلا تيهًا وحيرةً، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه وسلم(٢).

* * *

---

(١) ازدواجية العقل.. دراسة تحليلية نفسية لكتابات حسن حنفي (ص: ١٠).

(٢) إعداد: عمار محمد أعظم.

(٥)

من تقنيات الحداثة

السهام الطائشة

"تأتيني على ذلك بالبينة"(١)، "لا تبرح حتى تجيئني بالمخرج فيما قلت"(٢)، "أقم عليه البينة وإلا أوجعتك"(٣)، كان هذا هو نهج صحابة رسول الله ﷺ، سواء أكان ذلك في الأفكار والاعتقادات، أو كان في العبادات أو المعاملات والسلوكيات، فالبينة أو الحجة أو البرهان أو الدليل هو ما يدورون معه إثباتًا ونفيًا وتصحيحًا وإبطالًا.

فهذا أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب استدعى أبا موسى الأشعري ﵄، فجاء أبو موسى واستأذن على عمر بن الخطاب ثلاثًا، وكان مشغولًا فلم يأذن له، فرجع أبو موسى من حيث جاء، ولما فرغ عمر من شغله سأل عن أبي موسى فأخبر أنه انصرف، فاستنكر عمر ذلك التصرف والسلوك، وطلب الدليل أو البينة عليه، فأخبره أبو موسى أنه سمع النبي ﷺ يأمر بذلك ويقول: «الاستئذان ثلاث، فإن

---

(١) صحيح البخاري (٢٠٦٢).

(٢) صحيح البخاري (٧٣١٧).

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٧/ ٣٠).

أذن لك، وإلا فارجع»(١). وبهذا قدَّم أبو موسىٰ الأشعري ﵁ الحجة لعمر، ولكن عمر ﵁ أراد أن يعلِّم الأمة أن الرواية عن رسول الله ﷺ من عظائم الأمور، وليس بالهيِّن أن يروي كل ما بدا له، وليس من شأن الصحابة أن يهملوا الدين ويأخذوا عن كل من هب ودب كل ما يهذي به، فقال له: "تأتيني علىٰ ذلك بالبينة"، فشهد له أبو سعيد الخدري ﵁(٢).

فمنهج السلف منذ عصر الصحابة -رضوان الله عليهم- هو الاعتماد علىٰ الحجة والدليل، وهو الذي عليه سار من بعدهم من العلماء والأئمة الأعلام عليهم رضوان الله.

ولكن أعداء الحق والحقيقة من أهل الباطل والتزييف في كل زمان يعتمدون الضرب العشوائي للإشكالات، والرمي الطائش لسهام الشبهات والتشكيكات، دون أن يعضّدوا قولهم بما يستأنس به من أشباه الدليل، فضلًا عن الحجج والبينات والبراهين.

ولم يكن النهج الحداثي بمنأىٰ عن هذا الأسلوب التضليلي والتزييفي، بل عمل علىٰ إثارة الشكوك وبث الضلالات بلا حجة

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٥٣).

(٢) ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٦/ ٢٠٣)، إكمال المعلم بفوائد مسلم (٧/ ٣٠)، فتح الباري لابن حجر (٤/ ٢٩٨)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١١/ ١٧٧).

ولا برهان، والأدهىٰ والأمر أن يقوم بالاستدلال علىٰ دعوىٰ من الدعاوىٰ بدعوىٰ مثلها، بل هي أشد حاجة إلىٰ الدليل من المستدَلّ عليه!!

وكثيرًا ما يستعمل مثل هذا التمويه، ويتساءل العاقل ولا يدري: أكان ذلك مقصودًا لإضلال من لا يقرأ أو متواضع الاطلاع، أم له مغزىٰ آخر كمغزىٰ من وضع الأحاديث علىٰ رسول الله ﷺ ترغيبًا في قراءة القرآن؟!

◆

۞ أمثلة ونماذج:

لو تتبعنا كتب أركون فإن عينيك لن تخطئ بين الفينة والأخرىٰ أن تقف علىٰ أمثلة لذلك، فمثلًا نجد أركون يقول في كتابه: "نزعة الأنسنة في الفكر العربي" والذي اتخذ فيه من ابن مسكويه أنموذجا، يقول: "فنحن نعتقد أن كتابة السيرة الذاتية لكي تكون قريبة من الحقيقة، ينبغي أن تكون عبارة عن إعادة تركيب صبورة للتركيبة النفسية التي تنسج وتتشكّل لدىٰ كل فرد بمجرد احتكاكه بالعالم الخارجي، وعندما نلفظ كلمة (العالم الخارجي) فإننا نقصد أولًا الوسط الطبيعي أو الفيزيائي الذي يتشكّل الإدراك الحسي للفرد عن طريق الاستيقاظ عليه أو الاصطدام به لأول مرة.

كما وتنتج عن طريق الاحتكاك به تقنيات معينة للتلاؤم أو للتكيف معه، كما ونقصد العالم الإنساني أو البشري الذي يحيط بالفرد والذي ينقل إليه جملة من القناعات وشبكة معقدة من السلوك والتصرفات، وكذلك طريقة محددة لكي يفهم ذاته ويفهم الآخرين، هكذا تتشكل الحساسية لأول مرة عن طريق الاصطدام أو الاحتكاك بالعالم الخارجي في مرحلة الطفولة، وهكذا تنمو الشخصية الفردية في وسط الجماعة التي تؤمن لها فرص النجاح، أو تقمعها وتسجنها ضمن ظروف وحتميات قاسية تؤدي بها إلىٰ الفشل، ولكن ما إن تكبر الشخصية وتنضج حتىٰ تصبح قادرة علىٰ أن تؤثر بدورها علىٰ العالم الخارجي وعلىٰ الظروف المحيطة، وتفرض متطلبات جديدة أو ترتيبا آخر لأولويات الوجود، ولا تعود منفعلة فقط، وإنما تصبح فاعلة، إن هذا التبادل المستمر والتفاعل المتواصل والجدلية الحية والمرنة هي التي تولِّد القدر المتكامل للفرد داخل جماعته ومحيطه.

للأسف فإنه فيما يخص المؤلفين العرب القدماء، فإنه من الصعب تطبيق هذه المنهجية المثالية في دراسة السيرة الذاتية عليهم، أو قل: من الصعب تطبيقها بشكل كامل وقطف كل ثمارها هنا، وذلك لأن معلوماتنا عن هؤلاء المؤلفين متقطعة جدا ومحدودة وغير موثوقة

في غالب الأحيان"(١).

فبعد أن أطال في انتقاد أئمة الهدىٰ والعلم من العرب المسلمين في مئات السنين الماضية، الذين لمعوا في جانب التراجم وسرد الأشخاص وتدوين حياتهم وأيامهم، وقرَّر أهمية إعمال المناهج الحديثة في كتابة السيرة الذاتية للعلماء المراد دراستهم، قرر أن لا يفعل ذلك في بحثه الذي يتناول فيه ابن مسكويه، وجعل مستنده في الامتناع ما قاله من الصعوبة الكامنة في عدم توافر المعلومات أو قلتها وندرتها أو عدم الموثوقية فيها، كما نص عليه بقوله: "لأن معلوماتنا عن هؤلاء المؤلفين متقطعة جدًّا ومحدودة وغير موثوقة في غالب الأحيان"!!

ويعجب المرء كل العجب من هذا التهوين المجازف، والإسقاط المشين للأمة العربية والإسلامية بعامة.

فبغض النظر عن كون العرب وعلماء الإسلام أعملوا تلك المنهجية أو عُنوا بتلك العناصر التي تحدث عنها من الجوانب النفسية والحساسية التي تنشأ بعد الاصطدامات والاحتكاكات الأولى، كعنايتهم بالنشأة الشخصية للإنسان وشيوخه منذ نعومة أظفاره، بغض

---

(١) نزعة الأنسنة في الفكر العربي (ص: ١٣٨-١٣٩).

النظر عن كل ما أثاره من شكوك حول المنهجية الإسلامية التي سار عليها أئمة العلم والهدىٰ في الإسلام، نجده يعرض هو أيضًا عن تلك المنهجية، ويستند في إعراضه إلىٰ قضية مهمَّة اتخذ منها موقفه وهو كما يزعم: (عدم تكامل المعلومات عن الشخصيات الإسلامية، وقلتها ومحدوديتها، وعدم الموثوقية في مصادرها).

هذه الحجة التي يتكئ عليها أركون لا نظن أن أحدًا من أعداء الإسلام ادّعاها، فهي في ذاتها دعوىٰ تحتاج إلىٰ حجة ودليل، وذلك أن الواقع والأدلة تدل علىٰ نقيض ما يقول، فإن أمة الإسلام هي أكثر أمة كتبت تاريخ رجالها، واهتمَّت بتدوين أيامهم ولحظاتهم ونشأتهم وشيوخهم ومن ثم تلاميذهم، وسطروا في ذلك آلاف الأسفار والمجلدات؛ ما يكاد تعجز المؤسسات العلمية بأكملها عن جمعه اليوم، فكيف يقال بعد ذلك: إن مصادرها محدودة أو متقطعة؟!

وإلا فأين هو من التراجم المفردة لرجال الفقه علىٰ شتىٰ مذاهبهم والمؤلفين فيها، والتراجم المتخصصة في رجال الحديث والرواة والمؤلفين فيها، ناهيك عن علم التاريخ والفكر والقراءات وغيرها من العلوم والفنون؟!

ثم إذا كانت تلك المناهج الحديثة لا يمكن أن نطبقها أو ننزلها علىٰ المؤلفين العرب القدماء كما يقول، فمن إذن من العلماء نطبّق

عليه تلك المناهج والآليات؟! فليست هناك أمة من الأمم كتب تاريخها وتراجم رجالها أكثر مما كتب عن علماء الإسلام ومؤلفيهم، فلا تخلو مناهجه تلك إما أن تكون وهمية لا حقيقة لها، أو أن هناك تراجم لأمة أكبر من تراجم أمة الإسلام.

نعم، قد يصحّ هذا الكلام فيما لو كان يقصد نفسه بضمير الجمع حين قال: "لأن معلوماتنا عن هؤلاء المؤلفين متقطعة جدا ومحدودة"!! ولكن السياق ينمُّ عن أنه يقصد التعميم علىٰ جميع "المؤلفين العرب القدماء"، واتخذ منه سلَّمًا لتطبيقه علىٰ أنموذجه الذي كتب عنه أطروحته.

وبعد صفحات من مستنده هذا نجد مستندًا آخر احتجّ به، فحين وصل به القلم إلىٰ نشأة ابن مسكويه والحديث عن تركيبته النفسية المتشكلة نتيجة الاحتكاك بالعالم الخارجي لأول مرة في مرحلة الطفولة؛ أرسل كعادته بعض الأسئلة والاستفهامات ثم أجاب عنها باحتمالات، وعلّته في ذلك ندرة المعلومات كما سبق، ثم انطلق يبحث عن الدولة الإيرانية في القرن الثالث، ويحقّ للمرء أن يتساءل هنا: هل كان يعلم أن الدولة الإيرانية دولة حديثة؟ هل كان يعلم أن مصطلح إيران لم يسمع به أولاد ابن مسكويه فضلًا عن أن يلحق به هو؟ إننا نتحدث هنا عن رجل من القرن الرابع والخامس الهجري، فابن مسكويه توفي سنة (٤٢١هـ)، أم

أنه كان هناك وجود للدولة الإيرانية في ذلك القرن ولكن لم يعلم به سوىٰ أركون؟! ويبدو أن أدلة وجود تلك الدولة أيضًا مما اختصّ به أركون فلا يحتاج إلىٰ عرضها علىٰ الدهماء!!

يقول أركون: "مهما يكن من أمر مزاياه الشخصية، فإننا كنا نتمنىٰ لو نعرف نوعية العلاقات التي أقامها في شبابه والتي أدت إلىٰ المساهمة في تكوينه العلمي، هل كان له من مربِّين شخصيين؟ أم هل تردد علىٰ المدرسة في الري؟ وإذا كانت الحالة الثانية هي الصحيحة، فإننا كنا نتمنىٰ أن نعلم كيف كان التلامذة الصغار من الإيرانيين يتلقون علومًا بعيدة عن حساسيتهم؛ كعلم النحو والبلاغة العربية والنثر العربي والتفسير وأصول الدين والفقه إلخ؟"⁽¹⁾.

هذا عن الدولة الإيرانية في القرن الرابع الهجري، ويواصل أركون حديثه السابق ليقول: "وتتخذ هذه الأسئلة أهمية خاصة فيما يتعلق بحالة مسكويه؛ وذلك لأنه اعتنق دين الإسلام بعد أن كان مجوسيًّا بحسب رأي ياقوت الحموي، ونحن عندما ننظر إلىٰ اسمه الكامل نجده: أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، وهذا الاسم بحد ذاته يدل علىٰ أنه كان مسلما منذ فترة طويلة، أي: منذ جده علىٰ الأقل،

---

(١) نزعة الأنسنة في الفكر العربي (ص: ١٤٥).

ولكن ينبغي ألا تخدعنا المظاهر، فقد كان الناس آنذاك يجمعون أسماء النبي لكي يخترعوا سلالة مزوَّرة، ولكن ضرورية من أجل انتهاز الفرص والارتقاء في السلم الاجتماعي والسياسي"(١).

لسنا هنا نتكلم عن الإيحاء أو الإيهام الذي قد يتبادر إلىٰ الذهن عند قراءة نص أركون بأن ابن مسكويه العالم نفسه هو من أسلم بعد أن كان مجوسيًّا، مع أن ياقوت الحموي يقصد جدّه، وفي نص أركون ما يمكنه به أن ينفي هذه الدعوىٰ عن نفسه، ولكن ما الحجة وما الدليل علىٰ أن ابن مسكويه لم يكن من أب وأم مسلمين؟

نعم، فقد ألقىٰ بهذه التهمة أو هذه الدعوىٰ حين قال: "وهذا الاسم بحد ذاته يدل علىٰ أنه كان مسلما منذ فترة طويلة، أي: منذ جده علىٰ الأقل، ولكن ينبغي ألا تخدعنا المظاهر، فقد كان الناس آنذاك يجمعون أسماء النبي لكي يخترعوا سلالة مزوَّرة، ولكن ضرورية من أجل انتهاز الفرص والارتقاء في السلم الاجتماعي والسياسي".

فهل كانت هذه الظاهرة سائدة في المجتمع آنذاك، أم هي حالات معروفة؟ كم عدد أولئك الذين انتحلوا أسماء النبي ﷺ؟ وكم نسبتهم؟ وما أثر هذه الظاهرة علىٰ الأنساب؟ ومن من المؤرخين

---

(١) نزعة الأنسنة في الفكر العربي (ص: ١٤٥).

وكتاب التراجم تكلم عن هذه القضية؟ وهل غفل عنها علماء الإسلام وأئمة الجرح والتعديل في ذلك الجيل؟

كل تلك أسئلة كان يجب علىٰ أركون أن يجيب عنها؛ ليثبت لنا أن هذه الظاهرة حقيقة واقعة، ومن ثمَّ نستطيع أن نعتمد علىٰ تلك الظاهرة لنتحقق فيما بعد من تحققها ووقوعها في الشخصية المدروسة في بحثه.

ولكن أركون لم يفعل ذلك، بل جعل هذه الظاهرة المزعومة المفتقرة إلىٰ دراسة وأدلة، جعلها دليلًا وحجةً وبرهانًا علىٰ صحة دعوىٰ ادَّعاها، ويرويها لنا بكل ثقة، وبلغة يشعر قارؤها وكأنه يتحدث عن أمر يقيني مجمع عليه لم يعارضه فيه أحد! فمنذ متىٰ كانت الدعاوىٰ أدلة علىٰ دعاوىٰ لا حجة ولا برهان فيها إذن؟!

ولنخرج من هذا المأزق الذي أوصلنا إليه أركون في كتابه "نزعة الأنسنة في الفكر العربي"، فلقائل أن يقول: إن تلك التقنية أو الأسلوب إنما كان في كتاب واحد من كتبه، فماذا عن عشرات الكتب غيره؟

إذا كان الأمر كذلك فدعنا -أخي القارئ- ننتقل إلىٰ كتاب آخر، وننظر في دعواه هلامية عقيدة الألوهية التي يتبناها المؤمنون، واستدلاله علىٰ سطحيتها وهلاميتها حيث يقول في كتابه "الفكر الإسلامي.. قراءة علمية": "في مرحلة القرآن كان مطلوبًا إدراك الله

وتصوره بمثابة فاعل أو نموذج حاضر باستمرار في الحياة اليومية للنبي والمؤمنين، ولكن هذه الصورة أو هذا التصوّر سوف تتطور وتتغير في مراحل لاحقة، وذلك في عدة اتجاهات -الثيولوجي الكلامي والصوفي والفلسفي والشعبي ثم العقلاني اليوم- علىٰ عكس ما تظن المسلمة التقليدية التي تفترض وجود إله حي متعال وثابت لا يتغير، فإن مفهوم الله لا ينجو من ضغط التاريخية وتأثيرها، أقصد أنه خاضع للتحول والتغير بتغير العصور والأزمان"(١).

فهو هنا يستدل علىٰ هلامية عقيدة الألوهية والإيمان بالله تعالىٰ وخلقه وملكه وتدبيره وإفراده بالعبودية وأسمائه وصفاته، يشطح بكل تلك العقائد الإسلامية شمالًا؛ ويستدل علىٰ هلاميتها وسذاجتها بأنها مجرَّد إفراز للظروف والأحوال التاريخية التي عاشها العصر النبوي وجيل الصحابة: ليس ثمة إله في الحقيقة، وليس ثمة اعتقاد صحيح، بل مجرد خيالات تتلاشىٰ مع مرور الزمن وتعاقب التاريخ.

ولكن ما الدليل على ذلك؟

الدليل علىٰ ذلك عند أركون أن هناك خلافًا في تصور الإله بين الفرق الإسلامية، فالإله يختلف عند أهل السنة عنه عند أصحاب

---

(١) الفكر الإسلامي: قراءة علمية (ص: ١٠٢).

المنهج الكلامي، وهما يختلفان مع الاتجاه الصوفي في تصور الإله، فكل أولئك له تصوّره، وللمنهج الفلسفي تصور غيره.

فمجرد وجود خلاف بين الفرق اعتبره دليلًا علىٰ ضحالة عقيدة الألوهية وهلاميتها، فتعال ننظر في هذا الدليل الذي تبناه أركون هنا.

هل تمثل تلك الطوائف نسبة كبيرة بحيث يعتد بخلافها لمناقضة العقيدة التي دل عليها القرآن والسنة؟! هل لدىٰ كل طائفة من تلك الطوائف أدلة صحيحة تثبت اعتقادها؟! هل كل أولئك الطوائف فرق مسلمة أم منها ما هي منتسبة إلىٰ الإسلام؟! وهلم جرا...

ولكن هنا سؤال لا بد أن نركز عليه، وهو: هل يختلف أولئك جميعا في قضية وجود الله؟ لا بالطبع. ولكن أركون لم يتطرق لكل تلك القضايا، بل عرض الأمر وكأنهم يختلفون اختلافًا أصيلًا في قضية وجود الله تعالىٰ؛ مما قد يصل إلىٰ إنكار وجوده تعالىٰ الله عما يقولون علوا كبيرًا.

ودعنا نزيد مثالًا آخر من كتاب ثالث ليزول الريب عمن يستريب في كون ذلك منهجه في كتاباته كلها، وفي هذه المرة سنجوب أنظارنا في كتابه: "قضايا في نقد العقل الديني"، فمن أشنع ما فيه من الكلام حين تناول قضايا الألوهية ومسائل الإيمان بالله تعالىٰ بتهوين تام ولا مبالاة مطلقة، بل ويضفي أنواع السفه والبله علىٰ من يتعامل مع هذه اللفظة بتقديس، فيتعامل هو مع هذه اللفظة وكأنه يتعامل مع ظاهرة من

الظواهر الفيزيائية الطبيعية أو حالة من حالات الأمراض أو فيروس من الفيروسات!!

والأدهىٰ والأمر في كل ذلك أن نجده يستعرض النقاشات الدائرة في أوساط الأديان السماوية من يهودية ونصرانية وإسلام، ويهون من شأن الأخيرة التي ينتمي هو إليها!!

ولنترك الأمر إليك -أخي القارئ- هذه المرة لتستجليَ الأمر بنفسك، يقول أركون: "لقد استخدمت هذا المصطلح النيتشوي عن قصد؛ لكي أذكِّر الجامعيين الغربيين بأنهم قد حذفوا هذه المناقشة الفلسفية من ساحة العلوم الاجتماعية بدون حق، ثم لكي أذكِّر المسلمين بأن هذه المسألة -مسألة انحسار التقديس- تشكِّل تحديا كبيرًا الآن بالنسبة للفكر الإسلامي، بل إنها تقع في دائرة المستحيل التفكير فيه، بمعنىٰ أننا لا نتجرأ حتىٰ علىٰ طرحها، هذا في حين إن الفكر الأوروبي كان قد ناقشها منذ القرن التاسع عشر، والواقع أنه يستحيل علينا أن نترجم إلىٰ اللغة العربية عبارة نيتشه الشهيرة: (la mort de Dieu) أي: موت الإله، فقط كلمة (إله) مفرد آلهة يمكن أن تقبل وإن علىٰ مضض، وأما كلمة (الله) فلا يمكن أن تستخدم إطلاقًا في ترجمة هذه العبارة، لماذا؟ لأن كلمة الله ذات وجود هائل وضخم في الساحة الإسلامية والعربية، ولأن الخطاب القرآني كان قد جعلها

حية قوية جبارة من كثرة ما امتلأ بها وألح عليها، وبالتالي فقد استبطنت في أعماق كل مؤمن وامتلأت حياته اليومية بها إلىٰ درجة أنه لا يستطيع أن يتخيَّل عبارة كعبارة نيتشه هذه، بل إنها تصدم حساسيته بشكل قاطع وفي الصميم. ويكون رد فعله عندئذ عنيفًا لا يرحم، فكيف يمكن تصور عالم يغيب عنه الله؟! هذا جنون!"(١).

فلا ندري أين ذهبت جهود العلماء ومباحثات الأئمة الذين بحثوا قضية وجود الله ودلائل ربوبيته وألوهيته ووحدانيته ﷻ؟! ولكن ليس هو محل حديثنا مع أركون، وإنما سقنا هذا النص لننظر إلىٰ استدلاله علىٰ دعواه أن ترجمة عبارة نيتشه غير ممكنة، فلم كانت غير ممكنة؟

يحتج أركون بأن هذه الكلمة طافت حولها الأبخرة وغُمِرت بكم هائل من أدخنة القداسة من قبل البشر حتىٰ أصبح من المستحيل ترجمة تلك العبارة أو تصور معناها، أو كما يعبر أركون: "لأن كلمة الله ذات وجود هائل وضخم في الساحة الإسلامية والعربية، ولأن الخطاب القرآني كان قد جعلها حية قوية جبارة من كثرة ما امتلأ بها وألح عليها"، فإن النص القرآني هو السبب في ذلك، فهو قد أضفىٰ علىٰ هذه الكلمة (الله) كل هالات القداسة والتعظيم والقوة والجبروتية بعكس لفظة الإله!!

---

(١) قضايا في نقد العقل الديني (ص: ٢٠٧).

ولأن لفظ الجلالة أو كلمة (الله) -كما يقول أركون- أخذ حيزًا كبيرًا أو وجودًا ضخمًا في الفكر الإسلامي والعربي فلا يمكننا ترجمة عبارة نيتشه تلك بلفظة الجلالة، بعكس لفظة الإله مع أن لهما نفس الدلالة!! فهل هذه هي الحجة المانعة من ترجمتها بلفظة الجلالة؟! لا بالطبع، فإن المانع الحقيقي لإحلال لفظة الجلالة محل لفظة (إله) أن هناك فرقًا جوهريًا بينهما، فمعنى الله غير معنى الإله في الحقيقة، بغض النظر عن رأي المسلمين أو غيره، فالله علم على الذات العلية، أعرف المعارف، ذو الكمال المطلق في أسمائه وصفاته وأفعاله، المنزه عن كل نقص، والله أعظم أسمائه ﷻ وأشهرها وأكملها وأجمعها، ولم يتجرأ أحد من الخلق على التسمِّي به(١).

وأما الإله فهو من أله يأله إلهة، بمعنى: عبد يعبد عبادة، فيطلق على كل معبود سواء أكان معبودًا بحق أو كان بباطل، وسواء أكان مستحقًا للعبادة لكماله في ربوبيته وألوهيته، أم عبده عابدوه غيًا وضلالة(٢).

---

(١) ينظر: نقض الإمام عثمان بن سعيد الدارمي (١/ ١٦٨)، لوامع الأنوار البهية للسفاريني (١/ ٢٩)، شرح مقدمة صحيح مسلم للشيخ عبد الكريم الخضير (١/ ٤).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (١/ ١٢٧)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢٢٢٤)، النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٦٢)، لسان العرب (١٣/ ٤٦٧)، تاج العروس (٣٦/ ٣٢٢).

ومن هنا يتبين لنا البون الشاسع بين اللفظة الأولىٰ والثانية في الحقيقة، وليس مجرد إسدال لأستار التهويل والتقديس علىٰ اللفظة الأولىٰ من قبل بعض الأشخاص كما يريد أن يصور لنا ذلك. فاستناد أركون إلىٰ أن مجرد تعظيم المسلمين وتقديسهم للفظة (الله) هو حجة منع ترجمة عبارة نيتشه دعوىٰ عارية عن الدليل.

وننتقل بعد هذا إلىٰ نصر حامد أبو زيد ليتبيَّن أن هذه التقنية (الضرب العشوائي) يستخدمه هذا التيار الهدمي، بل وغالب التيارات المعادية لدين الإسلام، ففي سياق انتقاده للإمام الشافعي حيث قال في رسالته: "والقرآن يدل علىٰ أن ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب. ووجد قائل هذا القول من قبل ذلك منه تقليدا له، وتركا للمسألة عن حجته، ومسألة غيره ممن خالفه. وبالتقليد أغفل من أغفل منهم، والله يغفر لنا ولهم.

ولعل من قال: إن في القرآن غير لسان العرب، وقبل ذلك منه ذهب إلىٰ أن من القرآن خاصًا يجهل بعضه بعض العرب. ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء علىٰ عامتها، حتىٰ لا يكون موجودًا فيها من يعرفه. والعلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه، لا نعلم رجلا

جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء"(١).

انتقد نصر حامد أبو زيد هذا الاستدلال للشافعي، واحتج عليه بأنه يؤدِّي إلىٰ التناقض، فقال: "وإذا كانت اللغة العربية علىٰ مثل هذا الاتساع الذي لا يمكن لإنسان استيعابه -إلا أن يكون نبيًّا- فإن مهمة تفسير القرآن تصبح مهمة عسيرة، طالما أن القرآن بمثابة صورة مصغرة جامعة للغة العربية علىٰ مستوىٰ المفردات، وعلىٰ مستوىٰ التراكيب أيضًا، وإذا كان الشافعي لم يستطع أن يدرك ما في تصوره للغة العربية من تناقض يؤدي إلىٰ استحالة عملية التفسير، فما ذلك إلا لأنه كان يدافع عن نقاء اللغة العربية -وعن العروبة من ثم- من خلال إنكاره لوجود الدخيل في القرآن"(٢).

وليس المحل هنا محل مناقشة مسألة الكلمات المعربة في القرآن الكريم(٣)، ولكننا نودّ الإشارة إلىٰ أسلوب الضرب العشوائي والخلل المنهجي في الاستدلال والاحتجاج، فنصر حامد أبو زيد هنا رد ما

---

(١) الرسالة (١/ ٤١).

(٢) الإمام الشافعي (ص: ٥٩).

(٣) وقد ناقشها الإمام الطبري في مقدمة كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ينظر: (١/ ١٣).

ذكره الإمام الشافعي من اتساع اللغة العربية، ونسب ذلك إلىٰ أسباب نفسية وأيديولوجية لا حقيقية ولا موضوعية، واستند في رده ونقده للإمام الشافعي علىٰ أن تفسير القرآن غير ممكن لو كانت اللغة العربية أوسع الألسنة مما لا يحيط به إنسان!!

وهذا المستند بحدّ ذاته هو بحاجة إلىٰ دليل أو حجة يستند إليها، فمن قال: إن المفسر للقرآن الكريم لا بد أن يحيط باللغة العربية ألفاظًا وتراكيب؟! لا أحد يزعم أن كل لفظ في القرآن يحتاج فيه إلىٰ ضليع في اللغة، فضلًا عن شخص بلغ المنتهىٰ فيها، بل ذاك حبر الأمة وترجمان القرآن يقول: "التفسير علىٰ أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله"(١).

يقول الإمام الطبري موضحًا هذه القضية: "ونحن قائلون في البيان عن وُجوه مطالب تأويله: ... فقد تبين ببيان الله -جلّ ذكره- كوقت قيام الساعة، والنفخ في الصور، ونزول عيسىٰ ابن مريم، وما أشبه ذلك: فإن تلك أوقاتٌ لا يعلم أحدٌ حدودَها، ولا يعرف أحدٌ من

---

(١) جامع البيان. ت. شاكر (١/ ٧٥).

تأويلها إلا الخبرَ بأشراطها، لاستئثار الله بعلم ذلك على خلقه...

وأن منه ما يعلم تأويلَه كلُّ ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن. وذلك: إقامةُ إعرابه، ومعرفةُ المسمَّيات بأسمائها اللازمة غيرِ المشترَك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصة دون ما سواها، فإنّ ذلك لا يجهله أحدٌ منهم... فالذي يعلمه ذو اللسان -الذي بلسانه نزل القرآنُ- من تأويل القرآن هو ما وصفتُ: مِنْ معرفة أعيان المسمَّيات بأسمائها اللازمة غيرِ المشترَك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصة، دون الواجب من أحكامها وصفاتها وهيآتها التي خص الله بعلمها نبيَّه ﷺ، فلا يُدرَك علمُهُ إلا ببيانِه، دون ما استأثر الله بعلمه دون خلقه"(١).

فلم يقل أحد من أهل الإسلام بأن المرء بحاجة إلى الإحاطة باللغة العربية علمًا كي يستطيع تفسير القرآن الكريم، وإنما هي مجرد دعوى بحاجة إلى دليل. ناهيك عن الدخول في غرض الإمام الشافعي ونيته في تسليط العروبة كأيديولوجية أموية كما يريد أن يكرِّس نصر أبو زيد، فتلك دعوى وتهمة لا حجة عليها.

◆

---

(١) جامع البيان، ت. شاكر (١/ ٧٣).

❁ الخاتمة:

في ختام هذه الورقة تبينًا أن من أهم سمات الحداثيين وغالب التيارات الهدمية والمعادية للحق أنهم يرسلون الدعاوىٰ والشبهات إرسالًا دون أن تستند إلىٰ حجة أو برهان، والأدهىٰ والأمرّ أن يتظاهروا بالاستدلال بدعاوىٰ أمثالها هي في أمس الحاجة إلىٰ دليل، هذا علىٰ عكس ما قام عليه منهج علماء الإسلام وأئمته، فقد كانت الحجة والبرهان محط رحالهم ولحظ أنظارهم وأجلّ مقاصدهم وأسّ بنائهم وتصديقَ أقوالهم، امتثالًا لأمر الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين⁽¹⁾.

* * *

---

(١) إعداد: عمار محمد أعظم.

(٦)

من تقنيات الحداثة

توظيف المخرجات البدعية

"الدِّين الحقُّ كلَّما نظر فيه النـاظِر ونـاظر عنه الْمُنَـاظِر ظهـرت لـه البراهين، وقَوِيَ به اليقين، وازداد به إيمان المؤمنين، وأشـرق نـوره في صدور العالمين. والدِّينُ الباطلُ إذا جـادل عنـه المجادِل ورام أن يُقِـيم عودَه المائل أقام الله ﷻ من يقذف بالحقِّ على الباطل، فيَدْمَغُه فإذا هو زاهِق، وتبيَّن أن صاحبه الأحمق كاذبٌ مائق"⁽¹⁾.

فسبيل أهل الباطل دومًا الحومُ حول المتشابهات، ومحاولة الترس بقضايا الفتن والاختلافات، بعكس أهل الحق؛ فإنهم دومًا يحكمون بالعدل وأنبل الصِّفات، ويتمسَّكون بالعلم والمحكَمات، ويردّون إليها ما سواها من المتشابهات⁽²⁾.

إذا اتضح هذا فيتضح لنا بطلان الموقف الحداثي اليوم؛ إذ لم يأت بمنهج جديد كي يُعوِز الناظر عن استيضاح منهجه، بل حالهم

---

(١) الجواب الصحيح، لابن تيمية (١/ ٦٢).

(٢) ينظر: الجواب الصحيح، لابن تيمية (١/ ٧٢).

كحال أهل الباطل في كل زمان، حيث يتمسَّكون بالمتشابهات والغامض من الألفاظ والمصطلحات، ويتذرَّعون بالقدر المشترك بينهم وبين بدع الفرق الإسلامية في الأحكام والآراء، لا يهمّهم إن كان لتلك الفرق ديوان وإيوان أو حجة وبرهان، بل المهم أن يكون رأيهم ورأيها سيان؛ ليتخذوا من بدعة السابقين أقرب باب وأنسب عنوان.

وهذا حال أهل الباطل في كل ملّة، وفي كل نحلة، وفي كل زمان، يقول ابن تيمية: "حال أهل البدع والأهواء... يتمسَّكون بالمتشابه المشكوك، ويَدَعون المحكَم الصَّريح من نصوص الأنبياء، ويتمسَّكون بالقَدْر المشترك المتشابه في المقاييس والآراء، ويعرضون عما بينهما من الفروق المانعة من الإلحاق والاستواء"⁽¹⁾.

وهو ما نجد الاتِّجاه الحداثيّ العربيّ يتبنَّاه، فما إن يجدوا رأيًا لفرقة من الفرق توافق أهواءهم إلا وجعلوها مطيَّتهم، وإن كان الرأي مخالفًا لما اعتبروه واعتدوه في مواقف سابقة أو لاحقة، لكن المهم هو توظيف ذلك الرأي فيما يصبون إليه.

ولبيان هذه السمة في التيار الحداثي كانت هذه الورقة العلمية، فاللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه.

* * *

---

(١) الجواب الصحيح (١/ ٧٣).

تمهيد:

يقف بنا المفكِّر الفرنسي روجيه أرنالدز علىٰ هذه السمة التي يتَّسم بها الحداثيون، ولكنه بطبيعة الحال يتكلَّم عن حقله الذي يأخذون عنه وهو الفلسفة، فيقول: "ما آخذه علىٰ الفلاسفة العرب المعاصرين أنهم تأثروا كثيرًا بالفكر غير العربي، إنهم يترجمون كثيرًا، وهذه ظاهرة لافتة مهمة، فمن الضروري أن يلِمَّ الفلاسفة العرب المعاصرون بالفلسفات غير العربية، لكن غالبًا ما تشكِّل هذه الترجمات لهؤلاء المفكرين المادة الجاهزة التي يعتمدونها لبناء فكرهم الخاصّ، وآمل أن يؤسّس الفلاسفة العرب فلسفةً عربيّة خاصّة، دون أن ينغلقوا علىٰ الفلسفات غير العربية، وأن يخلقوا فكرًا عربيًّا أكثر استقلالا؛ انطلاقًا من تراثهم وتقاليدهم الخاصة، إن لديهم تراثا غنيًّا دينيًّا وصوفيًّا وفكريًّا، وأعني بالطبع الفلاسفة المسلمين، إذًا يجب أن ينطلقوا من هذا التراث الرائع؛ ليبحثوا علىٰ ضوئه في القضايا المطروحة الآن من ظروفها المكانية والزمانية، وتحمل خصائصها المميزة إنما تصب في مجموع الفلسفات المتناغمة"(١).

---

(١) جريدة النهار البيروتية، من مقابلة مع المفكر الفرنسي روجيه أرنالدز، بتاريخ: ٦/ ٤/ ١٩٨٥م، نقلا من كتاب: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف (ص: ٣٤٨).

وأيضا كان من الضروري والمنطقي أن يفهم الحداثيون أقوال أهل الفرق الإسلامية وأهواءهم، ثم يزنوها بميزان الحق، ويخضعوها لمكاييل البرهان، ولكن ذلك لم يكن، بل هم يتحيَّنون الأقوال الموافقة لأفكارهم وأهوائهم؛ ليتخذوا منها مطية لتمرير تلك الآراء التي عادة ما تكون مادة جاهزة مقلَّدة لما أنتجه فلاسفة الغرب كما يقول أرنالدز.

◆

نماذج وشواهد لتوظيف الأقوال البدعية:

أوّلًا: مع الشيعة ودعوى تحريف القرآن:

من أهمِّ الفرق التي استغلَّ الحداثيون أقوالها وآراءَها فرقة الشيعة، فهذا أركون يتذرَّع بخلاف بعض الشيعة ممن يعتقد عدم اكتمال نصوص القرآن الكريم أو وجود سقط وتحريف فيه؛ لينطلق من ذلك إلىٰ القول بتاريخية النص القرآني؛ ولذ يحتفي أركون بهذا الموقف الشيعي ويقول: "ينبغي أن أوضّح هنا أن الشيعة قد أطالوا المناقشات في الشروط التي جرىٰ فيها جمع العبارات النصية القرآنية وبلورة المصحف وإغلاقه"⁽¹⁾.

---

(١) الفكر الأصولي واستحالة التأصيل (ص: ١٦٢).

ويجعل لخلافهم مكانته لكي يوهم أن القرآن الموجود اليوم لم يحظَ بإجماع المسلمين واتفاقهم علىٰ صحَّته، بل استغرق الأمر نقاشات ومؤتمرات دامت بين الطوائف السنية والشيعية؛ ليخرجوا بعد ذلك بالنص الموجود بين أيدينا اليوم، لا بكلٍّ القرآن الذي نزل علىٰ محمد ﷺ، يقول أركون: "إن المكانة الأرثودكسية اللاهوتية للوحي كما قد نطق به النبي وجمع فورًا أو لاحقًا في المصحف بالإشراف الرسمي للخليفة عثمان بن عفان لا يمكن أن تكون موضوعًا للدراسة أو مادة للتحري النقدي، فهذه المكانة محميَّة من الإجماع السكوتي لكل المسلمين منذ أن كانت الطائفة الشيعيَّة الإمامية والطائفة السنية قد توصلتا إلىٰ اتفاق بعد مناقشات طويلة وصراعات عنيفة في صحة المصحف"(١).

ولا ندري إن كان الاحتفاء بهذا الخلاف بين الشيعة والسنة من بنات فكره، أم أنه مجرد تبعية وجمود علىٰ منتجات المستشرقين كما هو حال كثير من الحداثيين.

فإن بلاشير له ذات الموقف الذي اتخذه حيث يقول: "إن الاجتهادات المتعلقة بشرعية الخلافة والتي أحدثت حركة انشقاق الشيعة قد أثارت انفعالات دينية علىٰ تعديل نصوص قرآنية قديمة،

---

(١) القرآن من التفسير الموروث إلىٰ تحليل الخطاب الديني (ص: ١٢).

كالنص الذي ينسب إلىٰ ابن مسعود... وقد بقيَ ما يشهد علىٰ وجوده في الكوفة حتىٰ القرن العاشر"(١).

وفي ذات القضية -وهي فرية تحريف القرآن الكريم- يكتشف لنا حمادي ذويب من النصوص واختلافات المبتدعة ما يجعله يقف علىٰ الخيط الدال علىٰ وجود تحريف أو نقص في القرآن الكريم!! فيقول: "أما حديث الرجم الذي اعتبر ناسخًا للآية: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ [النساء: ١٥] فيردّه البزدوي أيضا؛ لأنه روي عن عمر أن الرجم كان ممّا يتلىٰ. وهذه الحجّة الأخيرة تبرز ظاهرةً مسكوتا عنها، هي عدم إجماع المسلمين علىٰ المصحف العثماني، علىٰ عكس ما تحاول الكثير من المصادر الإسلامية السنية أن ترسخه، فبعض المصادر تخبرنا أن فرقة الميمونيّة من الخوارج روي عنها إنكار أن تكون سورة يوسف من القرآن(٢). والشيعة يصرّحون أنّ المصحف العثماني قد أصابه التحريف والتغيير(٣)، وهم يتّهمون عثمان بأنّه أسقط بعض

---

(١) القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته، وتأثيره، ترجمة: رضا سعادة (ص: ٣٢).

(٢) انظر: مختصر كتاب الفرق بين الفرق (ص: ١٦٩).

(٣) يروي الكليني عن علي بن الحكم عن هاشم بن صالح عن أبي عبد الله (ع) قال: «إن القرآن الذي جاء به جبرائيل (ع) إلىٰ محمد ﷺ سبعة عشر ألف آية». انظر: الأصول من الكافي (٢/ ٦٣٤). ومن المعلوم أنّ القرآن ستّة آلاف ومائتان وثلاث وستون آية، وهذا يعني أن ثلثي القرآن ضاع وأنّ الموجود منه هو الثلث! وانظر: الشيعة والقرآن، إحسان إلهي ظهير (ص: ٣١).

السور التي يتداولونها في أوساطهم"(١).

ولا يشذُّ أركون عن الحداثيين في هذه السمة، بل هذا دأبهم جميعًا وديدنهم.

* * *

ثانيا: مع المعتزلة والقول بخلق القرآن:

وأما موقف المعتزلة في قضية خلق القرآن فعنده حطَّ الحداثيون رحالهم، وخلعوا عليه خلع التعظيم والمهابة، وباركوه أيما مباركة، وعظموه وبجَّلوه حتىٰ إنك تكاد تقول بأنهم يعتقدون ذلك الاعتقاد عن دراية وأصول كما بناها أوائل المعتزلة، بغض النظر عن صحة تلك الأصول.

وليس الأمر سوىٰ أنه "وافَق شنٌّ طَبَقة"، فأركون يريد أن يقعد لقضية القضايا التي أطال نفسه فيها، وهي قضية التاريخية أو تاريخية النص القرآني، وما إن ظفر بهذا الخلاف حتىٰ أقام له الطبول وأحيا به المراقص والليالي، واتخذ منه دليلًا يعتمد عليه لإقامة تلك الفكرة أو الفلسفة، فإن القول بأن القرآن مخلوق يعني أنه محدود بالحدود التاريخية ومتأثّر بظروفها، وليس باقيا ما بقيت السماوات والأرض،

---

(١) السنة بين الأصول والتاريخ (ص: ٢٧٨-٢٧٩).

بل هو فانٍ عما قريب إن سمحت الظروف التاريخية وتبدَّلت الأحوال، يقول أركون: "فالمعتزلة عندما دافعوا عن مفهوم خلق القرآن كانوا قد أحسوا بالحاجة إلىٰ دمج كلام الله في نسيج التاريخ، وإذا ما استعاد الفكر الإسلامي هذه الفكرة فإنه حينئذ سوف يمتلك الوسائل الكفيلة بمواجهة المشاكل التي تنثال علىٰ الفكر المعاصر من كل حدب وصوب بمصداقية أكبر وابتكارية أقوىٰ وأعظم"⁽¹⁾.

ولذلك نجده يريد إعادةَ الروح وبثَّ الحياة في تلك الجثّة الهامدة التي عفا عليها الزمن، فقط ليبرّر ما يتبناه من القول بالتاريخية، وينسب أهل العلم والدين إلىٰ الإقصاء، فيقول: "لا أعرف فقيهًا معاصرًا واحدًا أو شيخًا أو رجلَ دين يقبَل بإعادة طرح مسألة القرآن ككلامٍ مخلوق من قبل الله، لا أحدَ يقبل بمعالجة هذه المسألة الهامَّة علىٰ ضوء العلم الحديث والمنتجات اللغوية والتاريخية الحديثة. نقول ذلك علىٰ الرغم من أن المسلمين لطالما خاضوا فيها أثناء العصر الكلاسيكي، أثناء ازدهار العقلانية أيام المعتزلة، لكنها الآن ممنوعةٌ ومحرَّم تمامًا. فكيف يمكن للتحرير أن يحصل في الساحة العربية أو الإسلامية؟!... وبالتالي فإن إسلام الأصوليّين والمحافظين اليوم

---

(١) الفكر الإسلامي قراءة علمية (ص: ٨٢).

أضعف وأضيق بكثير من إسلام العصر الكلاسيكي"(١).

فلم يكتف بتلميع صورة المعتزلة في هذه القضية، بل تجاوز به الأمر إلىٰ نسبة علماء المسلمين إلىٰ ضيق الصدر ومحدودية الأفق في محاوراتهم ومناقشاتهم.

وكثيرًا ما يبارك أركون الفعل الاعتزالي الذي نحّىٰ النص القرآني عن مسرح التشريع، وأحل محله العقل البشري، ولكن سرعان ما تهاوت تلك الأفكار واندثرت حتىٰ بعث هذا التيار فيها الروح من جديد، يقول: "إن العقل الاستطلاعي الجديد يكافح علىٰ جميع الجبهات، وإنه لا ينحاز للغرب أو للشرق، إلىٰ الدين أو الدنيا، إلىٰ سياسية شرعية لاهوتية أو فلسفة إيجابوية علمانوية، بل إنه ينتمي إلىٰ مذهب الاتهام الفلسفي المنهاجي البناء، هذا المذهب الذي يشكّ في كل ما ينطق به العقل، ويحاول تأسيسه كمذهب، لا مذهب سواه أو بعده، ثم يفرضه الإنسان بالقوة علىٰ الإنسان! ويعلم هذا العقل منذ الكفاح الذي انطلق فيه التيار المعروف بالمعتزلة في قضية خلق القرآن أنه لا سبيل البتة للعقل البشري أن يتوسط بين الخطاب الإلهي والخطابات البشرية، دون أن يضع الأول في السياقات الدلالية

---

(١) قضايا في نقد العقل الديني (ص: ٢٢٢) -هامش-.

والقوانين البلاغية والوسائل الاستنباطية والمبادئ المنطقية التي تتصف بها الثانية"(١).

إن أركون يتصوَّر أن علىٰ الإيمان أن يوسّع أفقَه لهضم ما يسميه بـ: "التفنيدات" التي كشفت عنها علوم الإنسان والمجتمع، ويقول بصراحة: "فيما يخصُّ المجال الإسلامي نلاحظ أن عدَد المثقفين النقديّين الذين يقبلون بأن يوسّعوا إيمانهم ويدمجوا فيه كل التفنيدات التي فرضها التاريخ علىٰ كل أنظمة العقائد واللاعقائد هو نادر جدًّا"(٢).

وأما عن نصر حامد أبو زيد فيرىٰ أن هذه المسألة من أهم المسائل التي تدرُس الوحي بواقعية حيث يقول: "إن مسألة خلق القرآن كما طرحها المعتزلة تعني في التحليل الفلسفي أن الوحي واقعة تاريخية ترتبط أساسًا بالبعد الإنساني من ثنائية الله والإنسان أو المطلق والمحدود"(٣).

ويتطرَّق لقضيَّة خَلق القرآن بمناقشة أوسع؛ ليقرِّر أن القول بأزلية القرآن -كون القرآن كلام الله- ليس شيئًا، وليست سِوىٰ فكرة خاطئة خطرت في عقول بعض المسلمين، فهي ليست صحيحة: "ليس مفهوم

---

(١) قضايا في نقد العقل الديني (ص: ٩).

(٢) المصدر السابق (ص: ٢٧).

(٣) النص والسلطة والحقيقة (ص: ٣٣).

أزلية القرآن إذن جزءًا من العقيدة، وما ورد في القرآن الكريم عن اللّوح المحفوظ يجب أن يفهم فهمًا مجازيًّا لا فهمًا حرفيًّا مثل: الكرسي والعرش إلخ"(١).

وينطلق نصر حامد أبو زيد من القول بخلق القرآن إلىٰ قضية جوهريّة من القضايا الأصيلة في الدين الإسلامي الذي وعد الله بحفظه، فبينما نجد النص صريحًا بذلك في قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] نجد نصر حامد أبو زيد يشكك في هذا الحفظ الإلهي تبعًا لقوله بخلق القرآن فيقول: "وليس معنىٰ حفظ الله سبحانه للقرآن حفظه في السماء مدونا في اللوح المحفوظ، بل المقصود حفظه في هذه الحياة الدنيا، وفي قلوب المؤمنين به، وقول الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ لا يعني التدخل المباشر في عملية الحفظ والتدوين والتسجيل، بل هو تدخُّل الإنسان المؤمن بالبشارة والحضّ والحث والترغيب علىٰ أهمية هذا الحفظ، وفهمهم اللفظ بأنه تدخُّل مباشر من الزاوية الإلهية فهم يدلّ علىٰ وعي يضادّ الإسلام ذاته"(٢).

---

(١) النص والسلطة والحقيقة (ص: ٦٩).

(٢) النص والسلطة والحقيقة (ص: ٧٠).

ويعلّق الدكتور مرزوق العمري ويبين تناقضَ نصر حامد أبو زيد في طرحه لتبرير القول بالتاريخية، فيقول: "نجد نصر حامد أبو زيد يضطرب في هذه المسألة اضطرابًا شديدًا كما يتجلىٰ ذلك في كلامه: (إن النص في حقيقته وجوهره منتج ثقافي، والمقصود بذلك أنه تشكَّل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد علىٰ العشرين عامًا، وإذا كانت هذه الحقيقة تبدو بديهية ومتفقا عليها، فإن الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنص يعود لكي يطمس هذه الحقيقة البديهية، ويعكر من ثم إمكانية الفهم العلمي لظاهرة النص. إن الإيمان بالمصدر الإلهي للنص ومن ثم لإمكانية أي وجود سابق لوجوده العيني في الواقع والثقافة أمر لا يتعارض مع تحليل النص من خلال فهم الثقافة التي ينتمي إليها)⁽¹⁾. إن هذا النص يتضمَّن تناقضًا صارخًا في مسألة الكلام الإلهي، فمن جهة يلغي الأسبقية الميتافيزيقية له ومن ثم أزليته، ومن جهة ثانية يطرح إمكانية ذلك، الأمر الذي يجعل أحد النقاد يعتبر ذلك تلفيقًا منهجيًّا وفضيحة⁽²⁾، هذه إحدىٰ الآليات التي اعتمدها الخطاب الحداثي في بحثه في مسألة تشكل النص القرآني، وهي حقيقة الكلام الإلهي باعتباره صفة من صفات الله ﷻ، وكيف أنه جعل منه فعلا

---

(١) مفهوم النص (ص: ٢٤).

(٢) ينظر: نقد النص، علي حرب (ص: ٢٠٩).

لا صفة، حادثًا لا قديمًا، حتىٰ يمكن الاستدلال علىٰ تاريخيته في أحد تجلياته (= النص القرآني)"(١).

وعودًا إلىٰ قضية القول بخلق القرآن، فقد تجمهر عليه الحداثيون علىٰ بكرة أبيهم، وبالإضافة إلىٰ ما سبق فهذا محمَّد سعيد العشماويّ يقول: "رأي المعتزلة أن القرآن مخلوق، وكانوا يهدفون من ذلك إلىٰ ربط آياته بالواقع وسيلانها مع التاريخ، وعارضهم في ذلك السلفيّون بزعامة أحمد بن حنبل، فقالوا: القرآن أزليّ غير مخلوق، وهو قول يعني فصل القرآن عن الواقع وفصمه من التاريخ"(٢).

ونجد أركون يضفي علىٰ قوله بالتاريخية المعتمِد علىٰ النسبيّة وعدم وجود قرآن حقّ ولا حقيقة واحدة صبغاتِ الحجيّة بما يَعرِضه من خلافات حصلت في داخل التيار الإسلامي، ويرسل تلك الاختلافات إرسالا دون بحث في صحّتها أو أدلتها أو منطلقاتها ومآلاتها؛ ليقرِّر بعد ذلك أن لكلٍّ أن يقرأ النصَّ الدينيَّ بما يريد، ولكل أن يفهم كما يريد، يقول هاشم صالح وهو يترجم لأركون: "إن القرآن ككتاب تأسيسيّ ذي لغة مجازية عالية -ككل الكتب الدينية- كان

---

(١) إشكالية تاريخية النص الديني (ص: ١٢١).

(٢) تحديث العقل الإسلامي (ص: ٧)، نقلا من: النص القرآني إشكالية البنية والقراءة، لطيب تيزيني (ص: ٣٦٤).

يحتمل منذ البداية عدة تأويلات أو عدة تجسيدات تاريخية. وبالتالي فلا يوجد شيء اسمه: إسلام صحيح وإسلام خاطئ، وإنما توجد عدَّة تجلّيات للرسالة نفسها، فكل فئة اجتماعية تاريخية فهمت القرآن بطريقةٍ ما حولَّته إلىٰ عقيدةٍ ذاتية لها، وانغلقت داخلها، واعتبرت كلّ التأويلات الأخرىٰ بمثابة الضَّلال أو الانحراف. هكذا نشأت الفرق الإسلامية عبر التاريخ، وبالتالي فينبغي أن نقلب المنظور اللاهوتي القديم الذي يسيطر علىٰ كتب الملل والنحل، أو قل: ينبغي أن نخرج منه لكي ندخل في المنظور الاجتماعي والتاريخي. وعندئذ يمكن أن نفهم الأمور علىٰ حقيقتها، ونخرج من نطاق التصورات المسيطرة علينا منذ العصور الوسطىٰ"(١).

◆

ثالثًا: في حجية السنة والمعيار الحديثيّ (علم مصطلح الحديث والجرح والتعديل):

وفي موقف آخر من مواقف تيزيني نرىٰ الاحتفاء الكبير بكتب الشيعة الحديثيّة، والأدهىٰ أنه يقوم بتصوير ردِّها من قبل علماء الإسلام علىٰ أنها مجرّد قضية سياسية ومصالح ذاتية، لا علاقة لها بقضية صحَّة تلك الكتب من بطلانها في ذاتها، وكأن أهل السنة لم يكن لهم مسبار يسبرون به

---

(١) قضايا في نقد العقل الديني (ص: ١١٧) -الهامش-.

الأحاديث والأقوال المروية عن النبي ﷺ، وكأن الحداثيِّين درسوا تلك الكتب وسبروها وأقاموا المعايير وقعَّدوا القواعد لمعرفة صحيحها من سقيمها كما فعل علماء الإسلام، ولكن تبرير قضية تعدد القراءات هو ما يريد تيزيني فحسب، وتبرير ما يطرحونه من مسائل مناقضة للدين الإسلامي الحنيف هو مغزاه والمشرِّع لقوله بغضِّ النظر عن صحة من يتكلم عنه، يقول الطيب تيزيني: "ولعلَّنا نقول بأن الصعوبة كانت تتعاظم أكثر فأكثر كلما بعُد الزمن عن مرحلة الرسول، حيث كانت اتجاهات التبلور والتشقّق والتمحور أو الاستقطاب في نطاق البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإثنية، وكذلك في حقل الفرق والمذاهب الدينية تأخذ آفاقًا وأمداء كثيرة، بما في ذلك اتساع الإمكانات التقنية للتسويق الثقافي بصيغة الكتاب المطبوع، ويغدو هذا الأمر أكثر وضوحًا حين نضع في حسابنا أنه كذلك على صعيد التيار الشيعي، كانت هنالك كمّيات ضخمة من الأحاديث جعلت المدقِّقين ضمن هذا التيار وخارجه يبحثون بصعوبة في الصحيح والموضوع منها، فمحسن حسين العاملي يكتب من موقع التيار المذكور ما يلي: (أما قدماء الشيعة -أعني المعاصرين للأئمة عليهم السلام- فقد صنفوا في الأحاديث المرويّة من طرق أهل البيت -عليهم السلام- المستمدَّة من مدينة العلم النبوي في فنون شتى ما يزيد على ستة آلاف وستمائة كتاب مذكورة في الرجال على

ما ضبطه صاحب الوسائل، وامتاز من بينها أربعمائة مصنَّف اشتهرت بالأصول الأربعمائة. وقال شيخنا البهائي في الوجيزة: إن ما تضمنته كتبنا من هذه الأحاديث يزيد على ما في الصحاح الستة لأهل السنة بكثير كما يظهر لمن تتبع أحاديث الفريقين، وذكر علماء الرجال أنه روى راو واحد وهو أبان بن تغلب عن إمام واحد وهو جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ثلاثين ألف حديث)، أما أشهر جمَّاع للحديث من التيار الشيعي وهو الكليني في كتابه الكافي فقد نظر إليه بأهمية البخاري في صحيحه ضمن أهل السنة... إن ذلك منظورًا إليه مجتمعًا مع ما أتينا عليه توًّا يظهر ضخامة المشكلة وتعاظمها على نحو مطَّرد لم يتوقَّف حتى مرحلتنا الراهنة في أواخر القرن العشرين. ومن هنا ندرك المقاصد البعيدة لما قاله ابن عباس حين تحدث عن الكذب في تناول الحديث النبوي: (إنا كنا نحدِّث عن الرسول ﷺ إذ لم يكن يكذب عليه، فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه... فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف)، وفي المصدر نفسه -صحيح مسلم- يأتي ابن سيرين على مسألة الإسناد حيث يعلن أن المحدثين لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم"(١).

---

(١) النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة (ص: ٦٨).

هكذا ينتهي كلام تيزيني بهذا التشكيك والحديث عن النيات المرسل علىٰ عواهنه دونما دليل أو حجة، أو علامات ترشدنا إلىٰ صحة ما يقول.

وأمَّا ميزانُ أهل العلم والحديث الذي سبروا به الأقوال والآثار الواردة عن النبي ﷺ فأغلب الحداثيين يدندن حول هذا المعيار العلمي الدقيق الذي اعترف به أرباب المناهج العلمية، ويلمزون بأنه وسيلة من وسائل الإقصاء للآخر، وعدم الاعتبار للفرق البدعية المخالفة، مع أن المسألة ليست عصبية أو اتباعًا لمصالح شخصية، وإنما هو أخذ للصدق والحق الثابت من أقوال رسول الله ﷺ، ورد للباطل المكذوب عليه، ومن هنا نجد الطيب تيزيني يقول: "ولا بد من الإشارة أن تكوُّن ذلك الركام الهائل من الأحاديث لا يمكن فهمه أو علىٰ الأقل لا يمكن أن لا يستنفد فهمه من موقع سوء نية أو دسيسة يزعم أنه قام بها جماعات من المزورين أو المحرفين أو المبتدعين المغرضين لمصالح خاصة، أو لأمور وأهداف هي في نفس يعقوب كما يقال، فلقد برز ذلك الركام في أساس الأمر بمثابته قراءات مختلفة محتملة للنص الحديثي اختلاف الوضعيات الاجتماعية المشخصة، التي انطلق منها أصحابها وإذا دار الحديث علىٰ مثل سوء النية أو الدسيسة المعنيين، فإن المسألة هنا كذلك تتَّصل بمثل تلك القراءات وإن علىٰ نحو رديءٍ قصديًّا وإيديولوجيًّا.

ههنا تجدر العودة إلىٰ ابن سيرين في تحفظه علىٰ رجال الإسناد بعدما وقعت الفتنة علىٰ حدّ تعبيره، فهو يحدد هؤلاء الرجال بكل من لا ينتمي منهم إلىٰ أهل السنة، وذلك حيث يعلن بلغة تتضح فيها إدانة الآخرين علىٰ هذا الصعيد: (فينظر إلىٰ أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلىٰ أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم).

إن ابن سيرين في موقفه الإداني ذاك كان يطمح إلىٰ الوصول للأحاديث غير الموضوعة الصحيحة معتقدًا أن هذا يتوفَّر علىٰ صعيد رجال أهل السنة وحدهم دون غيرهم، يضاف إلىٰ ذلك الوقف السيرينيّ السني المذكور، وهو نموذجيّ ضمن أوساط الفقهاء والمفسرين والمؤرخين السنيين، كان بمثابة دعوة إلىٰ الحجر علىٰ آراء من سماهم أهل البدع من أمثال المعتزلة والشيعة، مما يكون قد حرمنا من التعرف إلىٰ آراء هؤلاء بقدر أو بآخر، وأسهم في الوقت نفسه في جعلهم يتَّخذون ردود فعل عنيفة علىٰ سلوكم ذاك، ربما أدت إلىٰ تضييع جزء أو آخر من إنتاجهم هم أنفسهم -أي: إنتاج أهل السنة المذكورين-. وفي كلتا الحالتين كان أحد الخاسرين ولا شك المؤرِّخ للثقافة العربية والإسلامية الذي فقَد ما قد يكون هامًّا في حقل المخطوطات والأعمال الفكرية؛ ذلك لأن عملية التدوين المنظَّم بدأت تأخذ مداها في القرن الثاني الهجري، وخصوصًا علىٰ أيدي أمثال

مالك بن أنس الذي ألَّف الموطأ، وهذه العمليَّة كانت في إجمالها ذات توجُّه سني، أو كان معظم القائمين عليها يعملون على المحافظة على سنيتها، وكان ذلك ربما بسبَبٍ من أنَّ الفرق الأخرى -ومنها المعتزلة والشيعة- خضعت غالبًا وبصورة إجمالية لاضطهاد السلطة الأمويّة والعباسية، في حين كان أهل السنة أيضًا غالبًا وبصورة إجمالية حليفًا للسلطة المذكورة، بل ربما كذلك جزءا منها"⁽¹⁾.

ومن ثمَّ يتطرق لأئمة الحديث لينسب إليهم ذلك الإقصاء الذي يعتقده فيقول: "وابن سيرين إذ يدعو إلى أخذ الحديث النبوي من أهل السنة وحدهم، فإنه بذلك يغفل أو يغيب عنه أن الانتماء العقيديّ إلى مذهبٍ ما لا يجعل أصحاب هذا المذهب متماثلين في غياب الموقف من الحديث المذكور، على امتداد مراحل تاريخية متعدِّدة، فغياب التماثل على هذا الصعيد يعني ضمن ما يعنيه انطلاق أولئك من وضعيّات اجتماعية مشخَّصة متباينة، أي: من مصادر إيديولوجية، وكذلك من مستويات معرفية غير متماثلة على الأقل...

وانطلاقا من هذه الرؤية التشكيكية المفتوحة يصبح مقبولا ومتّسقًا مع قواعد البحث العلمي النقدي ما أعلنه نصر حامد أبو زيد من أن عملية تثبيت نص الحديث في الصحاح الخمسة أو الستة -

---

(١) النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة (ص: ٦٩).

وعلىٰ رأسها البخاري ومسلم- هي في حقيقتها تثبيت للواقع عند رؤىٰ واجتهادات عصور بعينها"(١).

وينحو حمادي ذويب إلىٰ التشكيك في حجية السنة، وأنها بدعة من بدع أهل السنة وتشريعاتهم؛ ليس لشيء إلا لتثبيت عروشهم وقمع القراءات الأخرىٰ -أو الفرق الأخرىٰ- التي ظهرت في الساحة؛ كالشيعة والخوارج وغيرهم، وبذلك يقدح في الإمام الشافعي ومن بعدهم فيقول: "هكذا فإنّ إضفاء الحجيّة علىٰ السّنّة وعلىٰ الأخبار والقول بعدالة الصّحابة وعصمة الأئمّة وبنسخ السّنّة للقرآن والقرآن للسّنّة وتخصيص كلّ منهما للآخر ليست سوىٰ تجلّيات لوظيفة التّعالي الّتي قدّست السّنّة؛ لتؤمّن لها سلطة التّشريع والتّبرير والتّسويغ. ولا يمكن النّظر إلىٰ هذه العملية خارج إطار الفعل الإيديولوجي الّذي يضبط علاقة الفقيه بالسّلطة السّياسية. فتأسيس سلطة الخبر هي بالأساس وسيلة لتأسيس الإمامة؛ لذلك كان مبحث الأخبار مقدّمة لمبحث الخلافة في الكتب الكلامية، كما أنّه وسيلة للحفاظ علىٰ مجال نفوذ للفقهاء ورجال الدّين. وتتجلّىٰ وثاقة الصّلة بين الفعل الأصولي والفعل الإيديولوجي إذا تتبّعنا علاقات

---

(١) المرجع نفسه (ص: ٧١).

الأصوليّين بالنّظم الحاكمة الّتي عاصروها. والاستنتاج الّذي نخرج به في هذا المجال أنّ أغلب الأصوليّين كانوا منضوين داخل السّلطة الحاكمة، مبرّرين ومكرّسين لإيديولوجيتها، فالشّافعي وابن حزم حاولا بلورَة المشروع الفكري للخلافة الأمويّة، والجويني والغزالي سعَيا إلىٰ تشريع الخلافة السّنّية وسلطة السّلاجقة بتكريس العقيدة الأشعرية والمذهب الشّافعي، ولا أدلّ علىٰ ذلك من مرامي عملهما بالمدرسة النّظامية"(١).

ويقول حمادي ذويب في موضع آخر: "إنّ انتصار الشّافعي للسنّة يمكن أن يفسّر إذن بمحاولته التّصدّي للمتكلّمين، وخاصّة منهم المعتزلة الّذين تبنىٰ المأمون بعض أطروحاتهم. فهذا المذهب بتحكيمه العقل قد هدّد وجود السنّة ورجالها، كما يمكن أن يفسّر بإرادته تواصل السّلطة العربية القرشيّة الّتي بدأها الرّسول العربي القرشي، وتواصلت بعد الخلفاء الأربعة علىٰ أيدي الأمويّين العرب القرشيّين، ولكنّ النظام العبّاسي الجديد الّذي برز سنة ١٣٢هـ حاد عن هذا الطّريق: طريق العروبة والقرشيّة والمنحىٰ السّلفي المحافظ الّذي يحتكم إلىٰ النّص لا إلىٰ العقل، وينفر من التّفكير المنطقي الاعتزالي.

---

(١) السنة بين الأصول والتاريخ (ص: ٣٠٢).

ومن هنا كان لجوء الشّافعي إلىٰ تأسيس حجّيّة السّنّة علىٰ النّص المقدّس والتّسامي بها إلىٰ منزلة الوحي القرآني"(١).

* * *

رابعاً: في عدالة الصحابة:

ينحو حمادي ذويب منحىً بعيدًا حين ينقم علىٰ علماء الإسلام تركهم للمثالب المكذوبة -والتي يروّجها الشيعة قديمًا وحديثًا- علىٰ الصحابة؛ فهم في زعمه يعرضون عن تلك المثالب لا لأنها مكذوبة، بل لغرض تأصيل حجية السنة وعدم إيرادهم للروايات الخاطئة عنهم مما يرويه الشيعة مثلًا وغيرهم، يقول: "لقد حاول الأصوليّون سعيًا إلىٰ تأسيس حجية الأخبار علىٰ إجماع الصحابة إلىٰ إضفاء العدالة والعصمة علىٰ الصحابة جميعهم دون تمييز، لكن ذلك لا يعبّر إلّا عن خاصية عامّة في الخطاب الفقهي والأصولي، هي إهدار البعد التاريخي في مباحثهم. وذلك يتّضح بجلاء في مبحث عدالة الصحابة، فقد وقع السكوت عند أغلبيّة الأصوليّين علىٰ ما طبع علاقات الصحابة أو حياتهم الخاصّة من خلافات ومنافسات وملابسات تدّل علىٰ أنّهم مثل غيرهم من الفاعلين الاجتماعيّين.

---

(١) المرجع نفسه (ص: ٧٥-٧٦).

وإذن فإنّ عدالتهم المطلقة مسألة افتراضيّة رسّخها الضمير الإسلامية الديني؛ لأنّ التشكيك فيهم -وهم شهود الوحي ونقلته- يعني زعزعة أعمدة الدّين؛ ولهذا السبب طبعت النزعة الانتقائيّة في الفكر السنّي المباحث التي تتعرّض للصحابة، فلم يعد يذكر من حياتهم إلّا الجوانب المضيئة، في حين يقع السكوت عن مواقف الفرق غير السنّية مثل المعتزلة والشيعة والخوارج من الصحابة"(١).

ومثل ذلك نجد الشرفي يعتبر التعظيم والقدسية التي يكنها المسلمون في نفوسهم قضية تاريخية، ويبرر ذلك بأن ما هو مقدس عند أهل السنة ليس كذلك عند غيرهم من الفرق، وأن ذلك يتَّضح إذا ما فهمنا ما سماه بإسلام الرسالة وإسلام التاريخ، بل إنه يقارن بين الفلاسفة والفقهاء ويضعهم في مقابلة متواجهة، لا ندري ما وجه التقابل بينهم!! ويجعل المتصوفة والسنة في مقابلة أخرىٰ لذات الغرض وفي ذات السياق!!

وبعد هذا يقول: "لا حرج من إخضاع الممارسة التاريخية للإسلام للنقد والمراجعة والتقييم، وأن القداسة التي أضفاها عليه الزمن ينبغي أن لا تحجب طبيعتها البشرية، ومن ثم ما تتسم به بحكم

---

(١) السنة بين الأصول والتاريخ (ص: ٢٢٤).

بشريتها من نقص ومحدودية، وحتىٰ من زيغ"(١).

◆

خامساً: في حجية الإجماع:

وإذا انتقلنا بأبصارنا مرة أخرىٰ إلىٰ الطيب تيزيني في كتابه "النص القرآني" نجده ينقض حجية الإجماع وبنيتها، ويكاد يكون اطَّلع علىٰ نوايا الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة الهدىٰ؛ ليقرر بأن الإجماع كان حيلة سياسية لقمع المبتدعة!!

ويبرز لنا الحلاج الذي ادَّعىٰ أنه هو الله، وتبنَّىٰ القول بالحلول والاتحاد، وشذَّ عن الأمة المسلمة جمعاء بأنه لم يكن مخطئًا في قوله، وإنما كان الخلاف السياسيّ برَّر للسلطة السنية اتخاذ الإجماع وسيلة ومبررًا لعقوبته.

وينتقل بعد ذلك بقلمه إلىٰ الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ليضعه -وهو إمام السنة والدين باعتراف الموافق والمعارض- مقابلًا لذلك الزنديق الذي ابتدع في دين الله ما لا يقره عقل ولا منطق، وليس له في دين الله نص ولا مرجع.

---

(١) ينظر: مقدمة إسلام الفقهاء، لنادر حمامي.

والشَّاهد أنه زعـم أن الإمـام أحمـد سُجن وعـذِّب جراء إجمـاع!! ولا ندري أيَّ إجمـاع يقصـد؟! وهـل يعقـل معنىٰ الإجمـاع، أم أن كـلَّ اتّفاق بين اثنين أو شرذمة من الناس يسمَّىٰ إجماعًا؟!

ولعل هذا ما يريد أن يقوله حيث يقـول بـأن إجمـاع المعتزلـة كـان هو السبب في قمع ابن حنبل، فالإجماع في كل زمن وسيلة مـن وسـائل القمع والاضطهاد!! وليست مسألة دينية أصولية استدلالية!!

كمـا أنـه وسيلة مـن وسـائل الإكـراه علىٰ العقائـد والشـعائر التـي لا تعقَـل، وإن شـئت فقـل علىٰ حـد تعبيـرهم: الخرافـات والأسـاطير الإسلامية، يقول الطيـب تيزيني: "وقـد تبلـور الإكـراه المـذكور بصـيغ وتعبيرات متعدِّدة، ربما كان الإجمـاع في مقـدمتها... ومـن ثـم فـإن مـن كان يرفض الإجماع كان يُنظر إليه علىٰ أنه جسم غريـب عـن الإسـلام، ينبغي عزله أو بتره -لنتذكر حالـة الحـلاج الـذي راح بضـميره الصـوفي الديني الشخصي ضحية إجماع سني لفهم الـنص الـديني، وابـن حنبـل الـذي عـذب في أقبيـة المـأمون المنطلـق مـن إجمـاع أو شـبه إجمـاع معتزلي!- والملفت في ذلك أن الفرقاء المعنيّين يضطهد بعضهم بعضًـا انطلاقًا من أن كلّ واحد منهم يزعم أنه هو الذي يمتلك الحقيقـة، وأنـه من ثم يملك حقّ إعلان الإجماع من طرفه.

وبالرغم من أن الإجماع مارس غالبًا أو أريد له أن يمارس وظيفة التوحيد السياسي والعقيدي للمجتمع الإسلامي، إلا أنه مثّل سلاحًا بحدين، أولهما أفصح عن بتلك الوظيفة، وثانيهما تجسَّد في مهمة الإكراه الديني لذوي الضمائر الدينية، الطامحين إلىٰ أن يعيشوا علاقتهم بالله -وهذه هي أسس الدين- علىٰ نحو يلبّي حاجاتهم الروحيّة الطلقة، قبل تلبية طقوس معية بحركات معينة تحمل طابع الإلزام من خارج"(١).

ومثل ما قال الطيب تيزيني يقول عزيز العظمة: "ما عضد الإجماع إذن إلا عضد سلطاني، وما الإجماع إلا ممارسة سلطانية في ميدان المعرفة وإطلالة سلطانية في ميدان المعرفة، وإطلالة سلطانية علىٰ التاريخ، تختار منه ما يلائم حاضرها من أشكال ومن ألوان"(٢).

◆

الخاتمة:

استعرضنا في هذه الجولات سمةً جوهرية من سمات الحداثيين، تتمثل في تصيّدهم للأقوال والآراء البدعية من الفرق؛ ليعتمدوا عليها

---

(١) النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة (ص: ١٧١ وما بعدها).

(٢) دنيا الدين في حاضر العرب (ص: ٩٦).

في تمرير مشاريعهم التقليدية المأخوذة عن أسانيد المستشرقين، دون أن يكون لهم معيار أو قاعدة أو مسبار يميزون به الحق من الباطل والطيب من الخبيث؛ ولكن معيارهم أن يوافق ما يستوردونه من أفكار من آبائهم الغربيين.

ويكفي المسلم شَرفًا أن نبيّنا محمدًا وصحبه هم مرشدوه وسلفُه، لا فلاسفة الشرق والغرب، ولا مبتدعة الماضي والحاضر، كما قال القائل:

وممَّا زادنِي شرفًا وتيها   وكدت بأخمصي أطأ الثُّرَيَّا
دخولي تحت قولك يا عبادي   وأن صيَّرت أحمد لي نبيَّا

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه، وسلم تسليمًا(١).

* * *

---

(١) إعداد: عمار محمد أعظم.

(٧)

بَينَ الأَسمَاءِ الإِلَهِيَّةِ وَالأسماء الحَدَاثِيَّةِ لِلقُرآنِ الكَرِيمِ

۞ كانت ولا زالت طعناتٌ طَائِشَةٌ وبَائِسَةٌ:

(فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلىٰ، وإنه ليُحطم ما تحته)(١).

هذا كان رد أحد عتاولة قريش الذين بذلوا كل الجهود ليحولوا دون علو القرآن ورفعته، ويعرقلوا دعوة النبي ﷺ، ويثنوه عن إعلاء الذكر والقرآن الكريم، والكتاب والفرقان والتنزيل الحكيم.

إنه كتاب الله، الذي تكفل ﷻ بحفظه مهما تخلفت الأسباب، ومهما تغيرت الأحوال والأزمان، فهو محفوظ بحفظ الله ما دامت الأرض والسماوات، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]؛

---

(١) ينظر: المستدرك علىٰ الصحيحين (٢/ ٥٥٠) برقم (٣٨٧٢)، وقال الحاكم: (هذا حديث صحيح الإسناد علىٰ شرط البخاري ولم يخرجاه).

ولذا شُلت دونه أيدي المحرفين، وتوقفت عنده أفاعي المتلاعبين والحاقدين، وانكسرت علىٰ صخرته سهام المغرضين.

وكانت ولا زالت المحاولات تترىٰ للمساس بكتاب ربنا الكريم، ولكنها باءت وتبوء بالفشل دومًا، وما زلنا نرىٰ بأم أعيننا تلك النتيجة في محاولات المعاصرين، وهذا وجه من أوجه إعجازه ينبغي علىٰ أولي الألباب التأمل فيه، قال السعدي: (﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] أي: في حال إنزاله وبعد إنزاله، ففي حال إنزاله حافظون له من استراق كل شيطان رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله، واستودعه فيها ثم في قلوب أمته، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل، فلا يُحَرِّف مُحَرِّف معنىٰ من معانيه إلا وقيض الله له من يبين الحق المبين، وهذا من أعظم آيات الله ونعمه علىٰ عباده المؤمنين، ومن حفظه أن الله يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يسلط عليهم عدوًّا يجتاحهم)(١).

ومن تلك المحاولات لتقويض منزلة القرآن الكريم ما تبناه أصحاب القراءات الجديدة أو الحداثية المبتدعة، الذين لم تقنعهم الأسماء الإلهية للقرآن الكريم، ولم ترض عقولهم بما رضي الله تعالىٰ ورسوله ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم والأئمة والأمة من بعدهم،

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٤٢٩).

فتلك الأسماء غير كافية ولا مرضية لحال القرآن الذي بين أيدينا في نظرهم، فاستبدلوا بها غيرها وأحلوا محلها أسماء أخرىٰ!! فهل كانوا صائبين في اختراعهم أسماء جديدةً واستبدالها بالقديمة؟ أم كانوا من الذين يستبدلون الذي هو الأدنىٰ بالذي هو خير؟

من هنا كانت هذه الورقة لإماطة اللثام عن هذه القضية، ومعرفة تلك الأسماء ودوافعها ومضامينها ودلالاتها، وأركون من أشهر من حال وصرح بذلك، فكان الحديث حوله.

اللهم اجعل عملنا صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل فيه لأحد شيئًا.

◆

أسماء القرآن الربانية:

(كثرة الأسماء تدل علىٰ شرف المسمىٰ، أو كماله في أمر من الأمور، أما ترىٰ أن كثرة أسماء الأسد دلت علىٰ كمال قوته، وكثرة أسماء القيامة دلت علىٰ كمال شدته وصعوبته، وكثرة أسماء الداهية دلت علىٰ شدة نكايتها؟! وكذلك كثرة أسماء الله تعالىٰ دلت علىٰ كمال جلال عظمته، وكثرة أسماء النبي ﷺ دلت علىٰ علو رتبته وسمو درجته، وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت علىٰ شرفه وفضيلته)(١).

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروز آبادي (١/ ٨٨).

وكما ميز الله ﷻ القرآن بالحفظ دون غيره من الكتب، فقد خصه أيضًا بجملة من الأسماء، دالة علىٰ علو منزلته ورفعة مكانته وفضله وبيانه وبركته وهداه، ولعلنا نأخذ جولة حول أعلام تلك الأسماء التي ذكرها القرآن وبينها العلماء(١)، ومنها:

◆

القرآن

أول هذه الأسماء وأعلاها وأشهرها: القرآن الكريم، فهو الاسم الذي اختاره الله لكتابه وميزه به عن غيره من الكتب، حتىٰ غدا علمًا به يعرف، سواء في الشرق أو الغرب، بل وفي أقطار العالم كله حاضره ومستقبله، وأما الماضي فليس فيه كتاب سمي بهذا الاسم، فهو متفردٌ به علىٰ مر العصور، كما أنه متفرد بكونه محفوظًا علىٰ مر الدهور، فهو الاسم الذي دار علىٰ ألسنة أهل العصر النبوي والصحابة والأئمة، وبه عُرف عند أهل الإيمان وأهل الكفر في كل زمان، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

---

(١) للاستزادة ينظر: تفسير الطبري (١/ ٩٤)، تفسير الماوردي (١/ ٢٣)، التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ٧١)، أسماء القرآن وأوصافه في القرآن الكريم لعمر بن عبد العزيز الدهيشي.

وقد ورد ذكره بهذا الاسم فيما يربو على تسعة وستين موضعًا، يقول الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: (فاسم القرآن هو الاسم الذي جُعل علمًا على الوحي المنزل على محمد ﷺ، ولم يسبق أن أطلق على غيره قبله، وهو أشهر أسمائه وأكثرها ورودًا في آياته، وأشهرها دورانًا على ألسنة السلف)(١).

وقد ورد في كثير من النصوص الحديثية على لسان النبي ﷺ والصحابة والسلف، فهذا رسول الله ﷺ يعلِّم الأمة صفة صلاتهم ووقوفهم بين يدي الله تعالى، فيقول في حديث المسيء في صلاته: «**إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا ...**» الحديث(٢)، وفي حديث الرؤيا التي رآها النبي ﷺ حكى حال من يقرأ القرآن ثم لا يعمل به: «**أما الذي يثلغ رأسه بالحجر، فإنه يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة**»(٣).

وهذه أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تحكي حال صاحب رسول الله ﷺ مع القرآن فتقول: (لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار: بكرةً

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (١١٤٣).

وعشية، ثم بدا لأبي بكر فابتنىٰ مسجدًا بفناء داره، فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيقف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلًا بكاء، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين)⁽¹⁾.

فالقرآن هو المقروء والمتلو، وهو الجامع الذي ضم بين دفتيه الهدىٰ والخير للبشرية، فهو جامع لأبواب الفضائل كلها، يقول ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ في ذلك: (وسمي القرآن قرآنًا؛ لأنه جمع القصص، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والآيات والسور بعضها إلىٰ بعض)⁽²⁾.

فهو قد جمع مجامع البيان، وقرن بين الفصاحة والبرهان، وضم العاطفة إلىٰ الحجة والسلطان، واشتمل علىٰ القرائن يصدق أولها آخرها، وكل نفسٍ تدبرتها أوتيت هداها؛ حيث جمع أنواع العلوم وأهداها، وأودع كل ثمرات الكتب السابقة وهداها.

وليس جمع القرآن كغيره من المجاميع، بل كان جمعًا متناسقًا، انتظمت به كلماته وحروفه وسوره، وتناسقت معانيه ومقاصده وحكمه، وتناغمت به أجزاؤه، وكانت الإشارات الأولىٰ في صفه ورصه وجمعه

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٦).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٣٠).

وترتيبه من نبينا المعصوم ﷺ أمين الأرض، وبوحي مؤيدٍ من الله الذي اصطفىٰ أمين السماء لتبليغه، وقد سئل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﵁ عن هذا الترتيب والجمع فقال: كان النبي ﷺ مما ينزل عليه الآيات، فيدعو بعض من كان يكتب له ويقول له: «ضع هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»، وتنزل عليه الآية والآيتان فيقول مثل ذلك، فكانت الأنفال من أول ما نزل عليه بالمدينة⁽١⁾.

۞ دلالات اسم (القرآن):

هذا الاسم كما لاحظنا دلنا علىٰ كون القرآن مجموعًا جمعًا متناسقًا، أبهر الحكماء والبلغاء، وهو كذلك دل علىٰ أنه جمع أبواب الخير كله بين دفتيه، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فهو مَجْمَعُ الحِكَمِ والمَكْرُمات والهدىٰ والنور، وكما دل علىٰ أنه مقروءٌ متلوٌّ من الناس، كلما هجره قوم سخر الله تعالىٰ له من يقوم به كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، كما أن هذا الاسم علمٌ علىٰ القرآن، فلا يطلق علىٰ غيره ولم يتسم به غيره، لا في الماضي

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٨٦)، والترمذي (٣٠٨٦) وقال: (هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث عوف، عن يزيد الفارسي، عن ابن عباس).

ولا في الحاضر، ولن يكون ذلك في المستقبل أيضًا، فبمجرد ذكره تنصرف الأذهان إلىٰ كتاب الله المنزَّل علىٰ نبينا محمد ﷺ دون غيره. ومن دلالات هذا الاسم أيضًا أنه سيبقىٰ كتابًا محفوظًا مجموعًا في الصدور والسطور كما سيأتي في الاسم التالي وهو الكتاب(١).

◆

الكتـــاب:

و(الكتاب) عند الإطلاق ينصرف إلىٰ القرآن؛ إذ هو الكتاب المعهود في أذهان المسلمين دون غيره، وقد سماه الله ﷻ بذلك في مواضع كثيرةٍ من كتابه، يقول تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿حمٓ (١) وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [الدخان:١، ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ (١) تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ (٢) هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [لقمان:١-٣].

وكذلك الأمر في القاموس الحديثي والسلفي كان هذا الاسم متداولًا بينهم، فقد ورد عن النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، وهذا

---

(١) للاستزادة ينظر: تفسير الطبري (١/ ٩٤)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي (١/ ٨٨)، الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٨٢)، التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ٧١).

رسول الله ﷺ استعمله في دعائه لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، كما روى البخاري رحمه الله عن ابن عباس قال: ضمني رسول الله ﷺ وقال: «اللهم علمه الكتاب»(١)، وفي الحديث الآخر يبيِّن النبي ﷺ للأمة ركنًا من أركان الصلاة لا تجوز الصلاة بدونها حيث يقول: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»(٢)، وهذا قتادة رحمه الله يتداوله كما تداوله النبي ﷺ حيث يقول وهو يصف حال النبي ﷺ: (إن النبي ﷺ كان يقرأ بأم الكتاب وسورة معها في الركعتين الأوليين من صلاة الظهر وصلاة العصر، ويسمعنا الآية أحيانًا، وكان يطيل في الركعة الأولى)(٣).

والكتاب من الكتب وهو الضم والجمع، وهو ما يجعلنا نرجع القهقري لنعود إلى ما قلناه في اسم القرآن من أنواع الجمع، فهو قد جمع أنواع العلوم والخير والهدى، وجمع أحسن القصص وأدق الأخبار وأفضل الأحكام وأنجع الحجج وأقوى البراهين(٤)، (وفي هذه التسمية معجزة للرسول ﷺ بأن ما أوحي إليه سيكتب في المصاحف ...؛ ولذلك اتخذ النبي ﷺ من أصحابه كُتَّابًا يكتبون ما أنزل إليه ومن

---

(١) صحيح البخاري (٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٦).

(٣) أخرجه البخاري (٧٧٨).

(٤) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٨١)، البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٧٦).

أول ما ابتدأ نزوله، ومن أولهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان. وقد وجد جميع ما حفظه المسلمون في قلوبهم علىٰ قدر ما وجدوه مكتوبًا يوم أمر أبو بكر بكتابة المصحف)(١).

فكان أن كُتب القرآن والنبي ﷺ حي بين أظهرهم، ثم امتن الله علىٰ أبي بكر رضي الله عنه وزاده من فضله علىٰ بحر فضائله أن تولىٰ جمع القرآن.

ومن هذا الاسم والذي قبله استنبط الشيخ محمد دراز -رحمه الله- معنىٰ جميلًا يبين فيه خصوصية القرآن، وما تميز به عن غيره من الكتب السابقة حيث يقول: (روعي في تسميته قرآنًا كونه متلوًّا بالألسن، كما روعي في تسميته كتابًا كونه مدونًا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنىٰ الواقع عليه.

وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلىٰ أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعًا أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرىٰ، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتىٰ يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ٧٣).

إلينا جيلًا بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها بقي القرآن محفوظًا في حرز حريز؛ إنجازًا لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند، حيث لم يتكفل الله بحفظها، بل وكلها إلى حفظ الناس فقال تعالى: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤] أي: بما طلب إليهم حفظه ...

والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد، وأن هذا القرآن جيء به مصدقًا لما بين يديه من الكتب ومهيمنًا عليها، فكان جامعًا لما فيها من الحقائق الثابتة، زائدًا عليها بما شاء الله زيادته، وكان سادًّا مسدها، ولم يكن شيء منها ليسد مسده، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة، وإذا قضى الله أمرًا يسر له أسبابه، وهو الحكيم العليم)⁽¹⁾.

---

(١) النبأ العظيم (ص: ٤١) وما بعدها.

دلالات اسم (الكتاب):

لاحظنا بعد استعراض معنىٰ هـذا الاسـم ومضـامينه كيف أنـه دل علىٰ معنىٰ جليلٍ هـو مـن أهـم الركـائز القرآنيـة، ألا وهـو كونـه جامعًـا لأنواع العلوم والحكم والأخبار والقصـص، وكـذلك دلنـا علىٰ ركيـزة أخـرىٰ مـن الركـائز في موضـوع القـرآن وهـو أن مآلـه أن يكـون مكتوبًـا مجموعًا في الصحف والسطور، وكذلك محفوظًـا مجموعًـا في الأفئـدة والصـدور، وهـو مـا جعلـه فاضـلًا ومهيمنًـا علىٰ مـا سـبقه مـن الكتـب والأسفار، وبذلك حفظ الله تعالىٰ الإسـلام وأظهـره علىٰ الـدين كلـه، رغم كره الكارهين واشمئزاز المشركين.

الفرقان

لا نعجب من أن يتواصىٰ أعداء الإسلام ويتنادون في النوادي ألا تسمعوا لهذا القرآن، (والغطوا بالباطل من القول إذا سمعتم قارئه يقرؤه كيما لا تسمعوه، ولا تفهموا ما فيه)⁽¹⁾، وذلك أن الله ﷻ جعل كتابه الكريم فرقانًا كما سماه بذلك في غير ما موضع، قال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٤٦٠).

﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣، ٤].

والفرقان هو النجاة والمخرج كما ورد ذلك عن السلف؛ ولذا كان أعداء القرآن وما زالوا يتنادون باللغو والإشغال عن القرآن؛ لأن القرآن فيه النجاة والمخرج من الظلمات إلىٰ النور، وفيه التفريق بين الحق والباطل، والانتصار لأهل الحق والبيان، والذلة والخسران والوبال لأهل الزيغ والضلال، ويبين لنا الإمام البخاري (٢٦٥هـ) رَحِمَهُ اللهُ سبب تسمية القرآن بالفرقان: (وسمي الفرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل)⁽¹⁾.

وفصل الإمام أبو جعفر الطبري (٣١٠هـ) رَحِمَهُ اللهُ في ذلك، وقال بعد أن استعرض معاني الفرقان الواردة عن السلف: (وكل هذه التأويلات في معنىٰ (الفرقان)- علىٰ اختلاف ألفاظها- متقاربات المعاني؛ وذلك أن من جُعل له مخرجٌ من أمر كان فيه فقد جُعل له ذلك المخرج منه نجاةٌ، وكذلك إذا نجي منه فقد نصر علىٰ من بغاه فيه سوءًا، وفرق بينه وبين باغيه السوء. فجميع ما روينا عمن روينا عنه في معنىٰ (الفرقان) قولٌ صحيح المعاني؛ لاتفاق معاني ألفاظهم في ذلك.

---

(١) صحيح البخاري (٦/ ٩٩)، وانظر: البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٨٠)، الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٨٣).

وأصل (الفُرْقان) عندنا: الفرق بين الشيئين والفصل بينهما، وقد يكون ذلك بقضاءٍ، واستنقاذٍ وإظهار حجة ونصرٍ وغير ذلك من المعاني المفرقة بين المحق والمبطل. فقد تبين بذلك أن القرآن سمي فرقانًا؛ لفصله- بحججه وأدلته وحدود فرائضه وسائر معاني حُكمه- بين المحق والمبطل. وفرقانه بينهما: بنصره المحق وتخذيله المبطل حكمًا وقضاءً)(١).

وما أحسن ما استنبطه الشيخ الطاهر ابن عاشور -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ- في معنىٰ هذا الاسم حيث بيَّن وجه اختصاصه به عن غيره من الكتب السابقة، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ووجه تسميته: الفرقان أنه امتاز عن بقية الكتب السماوية بكثرة ما فيه من بيان التفرقة بين الحق والباطل، فإن القرآن يعضد هديه بالدلائل والأمثال ونحوها، وحسبك ما اشتمل عليه من بيان التوحيد وصفات الله مما لا تجد مثله في التوراة والإنجيل، كقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وأذكر لك مثالًا يكون تبصرة لك في معنىٰ كون القرآن فرقانًا؛ وذلك أنه حكىٰ صفة أصحاب محمد ﷺ الواردة في التوراة والإنجيل بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، فلما وصفهم القرآن قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فجمع في هاته الجملة جميع أوصاف الكمال.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٩٨-٩٩).

وأما إن افتقدت ناحية آيات أحكامه فإنك تجدها مبرأة من اللبس وبعيدةً عن تطرق الشبهة، وحسبك قوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ [النساء: ٣]، فإنك لا تجد في التوراة جملة تفيد هذا المعنىٰ، بله ما في الإنجيل. وهذا من مقتضيات كون القرآن مهيمنًا علىٰ الكتب السالفة في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: ٤٨])(١).

وكل هذا يستلزم بالضرورة أن يكون القرآن حقًّا في نفسه، وفي أعلىٰ مراتب الحقيقة؛ إذ كيف يكون فاصلًا بين الحق والباطل وفرقانًا وهو باطل في نفسه؟! قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ﴾ [البقرة: ٩١]، بل لا تعارض فيه ولا تناقض ولا اختلاف، وإنما هو حقٌّ كله يصدق بعضه بعضًا، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]، وهو فيصلٌ في كل ما تختلف فيه البشرية، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧ إِنَّ

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧٢).

رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٦-٧٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ ﴾ [الإسراء: ٨٩]، ولما كان في أعلىٰ مراتب الحقيقة عجزت البشرية أن تأتي بمثله، قال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

◈ دلالات اسم (الفرقان):

لا ينقضي عجب المرء مما اصطفاه الله ﷻ من الأسماء لكتابه العزيز، فما من اسم من تلك الأسماء إلا وفي طياته العديد من معاني الكمال الموجودة بالفعل في القرآن، وهذا اسم الفرقان يدلنا علىٰ أن القرآن نجاة لمن طلب النجاة به تلاوةً وتدبرًا وعملًا، بل هو أفضل طرق النجاة كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، وكذلك دل علىٰ أنه المخرج من الظلمات إلىٰ النور، كما دل أيضًا أنه مصدر معرفة الحق والباطل والتفريق بينهما، وكذلك دلنا علىٰ أنه فيصلٌ بين الحق والباطل، وناصرٌ للحق ومبطل للباطل، وبالتالي فهو حق في نفسه في أعلىٰ مراتب الحقيقة، وفيه تفصيل كل شيء.

◆

التنزيل

أول ما يتبادر إلىٰ ذهن العربي حين يسمع هذا الاسم هو أن هذا القرآن منزل من عند الله ﷻ، وليس مخترعًا ولا مختلقًا من قبل البشر، بل هو منزه عن مساس المحرفين وحيل المتلاعبين، فهو كلام الله رب العالمين الذي تكفل بحفظه فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وما زال هذا التنزيل محفوظًا كحاله حين نزل من أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان، ولا أدل علىٰ ذلك من أن القرآن هو هو، في أي قطر من أقطار العالم نظرت إليه، لا تغير في آياته ولا في سوره، بل ولا حتىٰ في حركاته وسكناته، وما قام قائم للتحريف فيه إلا قيض له من ينبري لفضح زيفه وكشف عواره.

وهذا ما نلمسه من آيات القرآن الكريم حين تورد هذا الاسم، ففي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٧-٨٠]. فأقسم ﷻ بأنه كتاب محفوظٌ من التحريف والتبديل، ومصون من أن تمسه أيدي الأنجاس والأراذل والمحرفين.

وفي موضع آخر ذكر الله تعالىٰ هذا التنزيل، وبيَّن أنه (كتاب عزيز بإعزاز الله إياه، وحفظه من كل من أراد له تبديلًا أو تحريفًا أو تغييرًا، من إنسي وجني وشيطان مارد ... فلا يستطيع الشيطان أن ينقص منه

حقًّا، ولا يزيد فيه باطلًا)⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ (٤١) لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

وما أصرح هذه الدلالة في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٣٨-٥٢]، فليس هذا القرآن من اختراع مخترع من البشر، أو صنع حاذق من الحذاق، أو شعوذات كاهن من الكهان، أو تأليفات شاعر من الشعراء، بل هو قول رسولٍ منزل من عند الله تعالى، فهو ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠] نزل عليه، ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ [الحاقة: ٤٤] محمد ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: ٤٤] الباطلة، وتكذب علينا، ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٥]، يقول: لأخذنا منه بالقوة منا والقدرة، ثم لقطعنا منه نياط القلب، وإنما يعني بذلك أنه كان يعاجله بالعقوبة، ولا يؤخره بها، كما قال الإمام الطبري (٣١٠هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ⁽²⁾.

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٤٧٩).

(٢) المرجع نفسه (٢٣/ ٥٩٢).

وكذلك اسم التنزيل يحمل في طياته معنىً جميلًا تطمئن له قلوب المؤمنين، وهو أنه كلام الله ﷻ، فالله ﷻ هو الذي أنزله علىٰ جبريل، ونزل به جبريل عليه السلام علىٰ قلب النبي ﷺ، ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

فهو ليس منتجًا أرضيًّا مصنوعًا من البشر، وإنما (نزل به الروح الأمين، فتلاه علىٰ نبينا محمد ﷺ حتىٰ وعاه قلبه.

وقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٤]، يقول: لتكون من رسل الله الذين كانوا ينذرون من أرسلوا إليه من قومهم، فتنذر بهذا التنزيل قومك المكذبين بآيات الله)⁽¹⁾.

وكونه كلام الله ﷻ يدفع المسلم إلىٰ التشرف به والتبرك به كل زمان، وتلاوته والعمل به في كل حال، دون أن يكون في قلبه ريب أو شك فيه؛ فبه يكون الشفاء والرحمة لهم، قال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وبالإضافة إلىٰ كل الأمور السابقة فإن اسم (التنزيل) وقف في الصفوف الأمامية حين حاول المبتدعة من الجهمية والمعتزلة تزييف

---

(١) المرجع نفسه (١٩/ ٣٩٦) بتصرف يسير.

أمر القرآن وادعاء خلقه، مع أنه كلام الله ﷻ، فإن الله ﷻ حين سماه بهذا الاسم اختصه بالإضافة إلىٰ نفسه ﷻ دون غيره من الأمور المنزلة، فقال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ١، ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۝١١٤ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٤، ١١٥]، وأما ما ذكر إنزاله من غير القرآن، فلم يضف إليه ﷻ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فلم يضف شيئًا من الأمور التي ذكر تنزيلها إلىٰ نفسه غير القرآن؛ وهو دالٌّ علىٰ اختصاص القرآن وامتيازه عن غيره من الأمور المنزلة؛ فهو صفة، والصفة إنما تضاف إلىٰ من اتصف بها، ولو كانت مخلوقة لفارقت الخالق، ولم تصلح وصفًا له؛ لأنه تعالىٰ غني عن خلقه، لا يتصف بشيء منه.

❁ دلالات اسم (التنزيل):

من أهم الأمور التي دلنا عليها هذا الاسم أنه كتاب منزَّل من عند الله تعالىٰ، وليس مخترعًا من البشر، وأيضًا كون الله ﷻ هو الذي أنزله، وهو الذي تكفل بحفظ تنزيله، فحفظ ﷻ تنزيله، وجعله مرفوعًا عن أيدي المحرفين، ومصونًا عن مساس المتلاعبين، ومنها أنه كلام الله ﷻ، نزل به الروح الأمين جبريل علىٰ نبينا محمد ﷺ، والشرف كل الشرف والفلاح كل الفلاح لمن اعتصم به، وكذلك دلنا هذا الاسم علىٰ أن القرآن منزَّل غير مخلوق كما هي عقيدة أهل السنة والجماعة.

◆

الذكر

امتن الله ﷻ - وهو المنان الكريم- علىٰ أمة محمد ﷺ بأن جعل القرآن شرفًا لهم، بحيث يخلد بخلوده ذكرهم في العالمين، فهو (ذكرٌ وشرف وفخرٌ لكل من آمن به وصدق بما فيه)(١)، وهذا أحد معنيي هذا الاسم للقرآن الكريم، والذي سماه به الله ﷻ حيث قال: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، أي: (هذا القرآن الذي أنزلناه

---

(١) المرجع نفسه (١/ ٩٩).

إلىٰ محمد ﷺ ذكر لمن تذكر به، وموعظة لمن اتعظ به)(١)، وهذا فيه ما يدل علىٰ أن القرآن سيبقىٰ محفوظًا؛ إذ لا يمكن أن يكون ذكرًا لمن اتبعه إلا إذا بقي زمانًا بعد اتباعه، كما قال تعالىٰ في الآية الشهيرة: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، (وإنا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطلٌ ما ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه وحدوده وفرائضه ... قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: فأنزله الله ثم حفظه، فلا يستطيع إبليس أن يزيد فيه باطلًا، ولا ينتقص منه حقًّا، حفظه الله من ذلك)(٢). وقد استشهد علىٰ ما قاله بالآية الأخرىٰ التي مرت معنا آنفًا وهي قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، قال الإمام الطبري (٣١٠هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معناها: (كتابٌ عزيز بإعزاز الله إياه، وحفظه من كل من أراد له تبديلًا أو تحريفًا أو تغييرًا، من إنسي وجني وشيطان مارد ... فلا يستطيع الشيطان أن ينقص منه حقًّا، ولا يزيد فيه باطلًا)(٣).

والمعنىٰ الثاني الذي يذكره العلماء لاسم الذكر أنه تذكير من

---

(١) المرجع نفسه (١٨/ ٤٥٤).

(٢) المرجع نفسه (١٧/ ٦٨).

(٣) المرجع نفسه (٢١/ ٤٧٩).

الله ﷻ بالأحكام والأوامر والنواهي والفرائض والمحرمات والحِكم والحدود⁽¹⁾، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، أي: (وأنزلنا إليك- يا محمد- هذا القرآن تذكيرًا للناس وعظةً لهم، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٤٤] يقول: لتعرفهم ما أنزل إليهم من ذلك، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، يقول: وليتذكروا فيه ويعتبروا به، أي: بما أنزلنا إليك)⁽²⁾.

وفي هذا المعنىٰ أيضًا قوله تعالىٰ: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، (معناه: ذي التذكير لكم)⁽³⁾، فهو متضمن للمواعظ والأحكام والأوامر والنواهي الكفيلة بتذكير البشرية واعتبارهم، وهو كافٍ كاملٌ في تشريعه ومواعظه وأحكامه وحِكمه، وليس بحاجة إلىٰ غيره من الأفكار والفلسفات والمناهج والسلوكيات، بل هو شامل كامل وصالح لكل الأماكن والأزمان، يقول تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ومن ذا يزيد علىٰ ما أكمله الله ﷻ وأتمّه؟!!

---

(١) ينظر: المرجع نفسه (١/ ٩٩)، التحرير والتنوير (١/ ٧٥).

(٢) تفسير الطبري (١٧/ ٢١١).

(٣) المرجع نفسه (٢١/ ١٤٠).

دلالات اسم (الذكر):

قد دلنا هـذا الاسـم علىٰ معـانٍ عظيمـةٍ، أهمهـا أن القـرآن سيبقىٰ محفوظًـا بحفـظ الله ﷻ، وأن أتباعـه سـيبقىٰ لهـم الشـرف والمكانـة محفـوظين علىٰ وجه البسيطة، وأنـه مشـتمل علىٰ مـا بـه اتعـاظ قلـب الإنسـان وتـذكيره، سـواء في بـاب الأحكـام أو الحكـم أو المحكمـات والحجج أو الحكايات والأخبار، وهو في كـل ذلـك جـاء بأكمـل شـيء بحيث لا يحتاج إلىٰ غيره.

* * *

أسماء القرآن مصطفاة بعناية:

قد بدا واضحًا للأعمىٰ والبصير أن أسماء القرآن ليست مجرد أعلام جامدة لا معنىٰ لها، بل هي أسماء مختارة اصطفاها الله تعالىٰ لكتابه؛ لتدل علىٰ معانٍ وأوصاف شريفة تليق بمقام كتابه العزيز الذي قال الله تعالىٰ فيه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

وفي هذا يقـول الإمـام أبـو جعفـر الطـبري (٣١٠هــ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن الله تعالىٰ ذكره سمىٰ تنزيله الذي أنزله علىٰ عبده محمد ﷺ أسـماء أربعـة ... ولكل اسـم مـن أسـمائه الأربعـة في كـلام العـرب معنـىٰ ووجـهٌ غيـر

معنى الآخر ووجهه)، ثم فصَّل معنى كل اسم من تلك الأسماء(١).

وهذا شأن من له الكمالات المطلقة وما يصدر عنه ﷻ، فمن له الكمال يتسمى بأكمل الأسماء، ويتصف بمطلق الكمالات والأوصاف التي تدل عليها تلك الأسماء، على عكس حال أهل النقص والضعف من البشر والمخلوقات.

فالله ﷻ له الأسماء الحسنى، وكل اسم من أسمائه دال على أكمل الصفات وأجملها وأشرفها، وكذلك أسماء كتابه الكريم وكلامه العزيز الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، اصطفى الله تعالى له أخير الأسماء وأعلاها وأجلها وأولاها، وكانت تلك الأسماء حاملة لما يتصف به ذلك الكتاب حقيقة، وأما المخلوقات فقد تجد من يسمى منهم بالأسماء التي لا يكاد يكون له من الاسم سوى حروفه، فتجد بينهم من يسمى صالحًا وليس بصالح، ومنهم من يسمى محمدًا وهو مذموم على ألسنة الناس أجمعين.

ولكن من المتقنعين بقناع القراءات الجديدة للقرآن الكريم من لم يقنع بما اصطفاه الله من الأسماء لكتابه، وبما رضي به النبي ﷺ وصحابته -رضوان الله عليهم- والتابعون والأئمة من بعدهم، بل كان له مهيع آخر وسبيل غير سبيل الله ورسوله والمؤمنين مع أسماء القرآن

---

(١) المرجع نفسه (١/ ٩٤).

الكريم؛ ولذا نرىٰ عدوله واستبداله بتلك الأسماء أسماء وضعها من عنده واستلهمها من معين عقله الراشد! ولكن:

ما هذه الأسماء التي وضعها أركون؟

هل صرح أركون عن الدوافع في استبداله بالأسماء القرآنية للقرآن غيرها؟

هل هذه الأسماء خير من الأسماء التي يُسمىٰ بها القرآن عند المسلمين؟

وهل هذه الأسماء تحمل معاني أفضل من تلك المعاني التي رأيناها في الأسماء الربانية؟

ما الآثار الناجمة عن استبدال الأسماء الأركونية الحداثية للقرآن الكريم بالأسماء الربانية؟

كل هذا سيأتي الجواب عنه في المبحث التالي:

◆

۞ أسماء القرآن الحداثية:

رأينا في المبحث السابق كيف كانت الأسماء القرآنية للقرآن الكريم حاملة في طياتها أطيب المعاني وأعطر الصفات، ولكن أركون لم تعجبه تلك الأسماء؛ ولذا فإنه اختار للقرآن الكريم أسماء من

عنده⁽¹⁾، ومنها:

(١) الخطاب النبوي.

(٢) المدونة الرسمية المغلقة.

(٣) الظاهرة القرآنية أو الحدث القرآني.

وهذا أوان الشروع في استعراض تلك الأسماء:

❖ الخطاب النبوي⁽²⁾:

إذا بحثنا في أول ما يتبادر إلىٰ ذهن المرء حين يسمع هذا الاسم، فغالبًا ما تأخذنا العقول إلىٰ مبلغه الكريم وهو النبي محمد ﷺ؛ لأنه هو من خاطب به الناس أول ما نزل.

هذا صحيح عند النظر إليه بنظرة عابرة دون معرفة خلفيات صاحب التسمية، ولكن هذا الاسم يحمل في طياته أيضًا معاني أخرىٰ غير هذا، فهو يلغي الركيزة الأساسية في القرآن الكريم وهو كونه خطابًا من الله ﷻ؛ ليكون بهذا الاسم خطابًا مضافًا إلىٰ النبي ﷺ، لينطق بعد ذلك بلسان الحال عن الشبهة القديمة الممجوجة التي نعق بها غربان

---

(١) من الكتب التي ناقشت هذه القضية كتاب: القرآن الكريم والقراءات الحداثية. د. الحسن العباقي (ص: ٧٣).

(٢) ينظر: الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، لأركون (ص: ٣٠).

المستشرقين صباح مساء، وهي: أن القرآن تأليفٌ محمدي أو منتجٌ محمدي ولا علاقة له بالإله أو بالسماء كما يحلو لهم أن يعبروا، فهو- بزعمهم- من تأليف النبي محمد ﷺ وليس من كلام الله ﷻ.

وما دعانا إلىٰ أن ننحو هذا المنحىٰ هو سياق الكلام الذي أورد فيه هذه التسمية، فقد طرحه بعد أن استهجن اسم القرآن واستبعده لما فيه من الهالة التقديسية التي تمنع من البحث في حقيقته كما يزعم، وحاول زورًا منه وإفكًا التفريق بين القرآن المسموع الذي ألقاه النبي ﷺ علىٰ الصحابة والقرآن المكتوب الذي بين أيدينا!! ليشكك بعد ذلك في أمانة الصحابة الكرام الذين جمعوا القرآن ونقلوه إلينا، ويوهم بوجود تحريف أو نقص في القرآن الكريم حيث يقول أركون: (لننتقل الآن إلىٰ ما يدعوه الناس عمومًا بالقرآن(١)، إن هذه الكلمة مشحونة إلىٰ أقصىٰ حد بالعمل اللاهوتي والممارسة الطقسية الشعائرية الإسلامية المستمرة منذ مئات السنين، إلىٰ درجة أنه يصعب

---

(١) هنا تعليق هاشم صالح: (كلمة قرآن مشحونة لاهوتيًا إلىٰ درجة أنه يصعب استخدامها قبل تفكيكها، فهي تفرض نفسها علىٰ الباحث المسلم بكل هيبة التقديس التاريخية، وتسحقه تحت وطأتها، فلا يعود يجرؤ علىٰ طرح أي تساؤل عليها؛ ولذا فلكي نستطيع أن نفهم القرآن فإنه ينبغي علينا مسبقًا التحرر من الهيبة اللاهوتية الهائلة عندئذٍ، وعندئذٍ فقط نستطيع أن نرىٰ القرآن في ماديته اللغوية وتراكيبه النحوية والمعنوية ومرجعياته التاريخية المرتبطة ببيئة شبه الجزيرة العربية).

استخدامها كما هي، فهي تحتاج إلىٰ تفكيك مسبق من أجل الكشف عن مستويات من المعنىٰ والدلالة كانت طُمست وكُبتت ونُسيت من قبل التراث التقوي الورع، كما من قبل المنهجية الفيلولوجية النصانية أو المغرقة في التزامها بحرفية النص.

وهذه الحالة لا تزال مستمرة منذ زمن طويل، أي: منذ أن تم الانتقال من المرحلة الشفهية إلىٰ المرحلة الكتابية ونشر مخطوطة المصحف بنساخة اليد أولًا ثم طباعة الكتاب ثانيةً، وهذه العمليات حبذت صعود طبقة رجال الدين وازدياد أهميتهم علىٰ مستوىٰ السلطة الفكرية والسياسية، وهذه الحالة تتناقض مع الظروف الاجتماعية والثقافية الأولية لانبثاق وتوسع ما يدعوه الخطاب القرآني الأولي بالقرآن أو الكتاب السماوي أو الكتاب بكل بساطة⁽¹⁾، وهو القرآن المتلو بكل دقة وأمانة، وبصوت عالٍ أمام حفل أو مستمعين معينين)⁽²⁾.

---

(١) هنا تعليق هاشم صالح: (من الواضح أن أركون يفرق هنا بين حالتين: حالة القرآن في زمن النبي عندما كان لا يزال نصًّا شفهيًّا، وحالته فيما بعد عندما تحول إلىٰ نص مكتوب، وعملية الانتقال من النص الشفهي إلىٰ النص المكتوب ليست مضمونة دائمًا بحذافيرها. ويبدو أن تشكل طبقة رجال الدين فيما بعد كان ضروريًا من أجل نساخة القرآن وتعليمه للناس، وهكذا قويت هيبتهم في المجتمع فكريًّا وسياسيًّا، وهذا أمر طبيعي).

(٢) الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، أركون (ص: ٢٩-٣٠).

فهو يعرض بالقرآن الكريم الذي هو كلام الله سبحانه، ويزعم صعوبة وصول حقيقته إلينا، ولذا يستبعد اسم القرآن؛ حيث توجد معانٍ ودلالات طُمست ونُسيت؛ ولذا يسميه: الخطاب النبوي؛ ليتقاطع بذلك مع الفرية الاستشراقية البالية.

لقد أثيرت هذه الشبهة في عهد النبوة، ولكن مآل الكاذب هو الفضيحة والعار، فقد كُشفوا حين تناقضوا في قولهم، فمن قائل بأنه هرطقات ودعاوىٰ أنشأها بنفسه، أو شيء من السحر والشعر ألفه من عنده، ومن زاعمٍ أنها أساطير الأولين اكتتبها منهم، أو هي فلسفات تعلمها من بشر مثلهم، ومن مدعٍ أنها إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون.

ويا سبحان الله! لم يخرجوا من صندوق الشبهات التي أثارها السابقون وفندها القرآن وأبطلها، بل هي هي⁽¹⁾، ولكنها تزيت بزي التحضر والمدنية، فمما قالوا مثلًا: (كانت نبوة محمد نابعة من الخيالات المتهيجة والإلهامات المباشرة للحس أكثر من أن تأتي من التفكير النابع من العقل الناضج، فلولا ذكاؤه الكبير ما استطاع

---

(١) يقول الدكتور عمر بن إبراهيم رضوان في كتابه آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره (١/ ٣٧١): (وشاء الله أن يعيد التاريخ نفسه في وقتنا الحاضر، فيأتي المستشرقون ليرددوا تلك العبارات الساذجة في كتبهم ومقالاتهم ومحاضراتهم، بل ويزيدوا عليها أقوالًا أخرىٰ يكذِّبها الواقع ويردها العقل المستنير ... فكان من أقوالهم أن القرآن من صنع محمد وتأليفه وبإعانة آخرين له بتبريرات لا تقبل).

الارتقاء على خصومه ... مع هذا كان يعتقد أن مشاعره الداخلية من الله بدون مناقشة)(١).

ومنها دعواهم أن الحالة التي كانت تصيب رسول الله ﷺ حالة صرع يغيب فيها عن الناس وعما حوله، ويظل ملقى على إثرها بين الجبال لمدة طويلة، يسمع له على إثرها غطيط كغطيط النائم، ويتصبب عرقه ...

وبعضهم اعتبرها حالة هستيرية وتهيجًا عصبيًّا يظهر عليه أثرها في مزاجه العصبي القلق، ونفسه كثيرة العواصف بشكل غامض، حتى كان يصل به الأمر إلى أن لا يفرق بين تعاقب الليل والنهار، وقد هزل على إثرها جسمه وشحب لونه وخارت قواه(٢).

وقليل من المقارنة بين تلك الدعاوى وبين الاسم المقدم من أركون الذي تتلمذ على هؤلاء ورضع من علمهم ينبئنا عن المحتويات والأدوات المصنعية التي دار فيها هذا الاسم حين إنتاجه من قبل أركون، والغايات التي صرح هو بسعيه إليها كتصريحهم.

---

(١) تاريخ القرآن، نولديكة (١/ ٥)، نقلًا عن آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، د. عمر بن إبراهيم رضوان (١/ ٣٧٢).

(٢) ينظر: مقدمة القرآن، مونتجمري واط (ص: ١٧-١٨)، ومقدمة القرآن، لمؤلفه بل (ص: ٢٩-٣٠)، نقلًا عن آراء المستشرقين حول القرآن، د. عمر إبراهيم رضوان (١/ ٣٩٨).

إذن أركون يضع القرآن في محل لبس وإشكال حين يسميه خطابًا نبويًّا؛ إذ السؤال المتبادر إلىٰ الذهن هو: هل كان هذا الخطاب نبوي المصدر أي: أن قائله ومؤلفه هو النبي ﷺ، أم هو ناقل مبلغ مرسل أرسله الله ﷻ وهو مؤلف هذا القرآن؟

مع أنه يصرح أن هذا الخطاب ليس بنبوي المصدر بعد أن يسميه بالخطاب النبوي حيث يقول: (لنسم هذا القرآن إذن بالخطاب النبوي، أي: ذلك الخطاب الذي يقيم فضاءً من التواصل بين ثلاثة أشخاص قواعدية، أي: ضمير المتكلم الذي ألف الخطاب المحفوظ في الكتاب السماوي، ثم الناقل بكل إخلاص وأمانة لهذا الخطاب والذي يتلفظ به لأول مرة، (أي: ضمير المخاطب الأول = النبي)، ثم ضمير المخاطب الثاني الذي يتوجه إليه الخطاب (أي: الناس))(١).

ثم إنه قد بيَّن لنا ما يدخل في هذا الاسم الذي وضعه للقرآن، حيث إن للقرآن نظائر ينبغي أن يلحق بها كما يزعم، ولا يختلف حالها عن حال القرآن، يقول أركون: (فتحليل الخطاب الديني أو تفكيكه يتم لا لتقديم معانيه (الصحيحة) وإبطال التفاسير الموروثة، بل لإبراز الصفات اللسانية اللغوية وآلات العرض والاستقلال والإقناع والتبليغ

---

(١) الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، أركون (ص: ٢٩-٣٠).

والمقاصد المعنوية الخاصة بما أسميته: (الخطاب النبوي)، وكنت قد بينت في عدد من الدراسات السابقة أن مفهوم (الخطاب النبوي) يطلق علىٰ النصوص المجموعة في كتب العهد القديم (أي: La Bible) والأناجيل، والقرآن كمفهوم يشير إلىٰ البنية اللغوية والسيميائية للنصوص، لا إلىٰ تعريفات وتأويلات لاهوتية عقائدية)⁽١⁾.

وأول ما ترمقه العين في هذا النص السابق ويعارضه المنطق الصحيح أنه وضع القرآن مع التوراة والإنجيل في سلة واحدة؛ ليدعي أنها جميعًا شبه بعض، مع أن الفوارق كثيرة، وشتان بين كتاب تكفل الله بحفظه وكتاب وكل حفظه إلىٰ أهله، بل أي مقارنة بين كتابٍ هو بين أيدينا كما أنزل بلغته الأولىٰ وحروفه وحركاته وسكناته لا يختلف في قطر من الأقطار عن آخر، وكتابٍ أو كتبٍ كتبها أصحابها بعد برهة من موت النبي، ولا وجود لأصولها، بل الموجود منها ترجماتها فحسب!! إلىٰ غيرها من الفروق التي لا تعد ولا تحصىٰ.

ولكن أركون يختلق هنا فريةً أخرىٰ يدعي فيها أن القرآن الذي بين أيدينا مرحلةٌ سبقتها مراحل من الصياغة والمراجعة والحذف والتنقيح والتعديل كحال التوراة والإنجيل!!

---

(١) القرآن الكريم من التفسير الموروث إلىٰ تحليل الخطاب الديني (ص: ٥).

وأما الوصول إلى المرحلة الأولى التي نزل فيها القرآن على النبي ﷺ من جبريل عليه السلام فمن المستحيل الحصول عليها كما هي، يقول أركون: (في دراسات عديدة سابقة كنت قد أقدمت حادًّا وقاطعًا بين المكانتين اللغويتين للخطاب القرآني، أقصد: المكانة الشفهية والمكانة الكتابية، فالمكانة الشفهية لها بروتوكولها الخاص في التواصل أو التوصيل، ونقصد بها الأداء الشفهي من خلال قناة خاصة، وفي ظروف مادية معينة، ومن خلال علامات سيميائية خاصة، وأدوات وآليات مستخدمة لتوليد المعنى الذي يؤدي إلى ردود فعل مباشرة عليه؛ إما القبول وإما الرفض، إما أنه يثير حماسة الجمهور المستمع، وإما أنه يثير غضبه على الفور، وهناك مكانة المكتوب أو القرآن كنص، ينبغي أن نعلم أن المكانة الشفهية للخطاب قد تأبدت (أو ظلت على قيد الحياة) من خلال التلاوة الشعائرية للقرآن من قِبل المؤمنين، وكذلك تأبدت من خلال الاستشهادات المتكررة التي تحصل للمسلمين كثيرًا في أحاديثهم اليومية أو العادية، ولكن هذين النمطين من الاستخدام الشفهي يختلفان لغويًّا عن المرة الشفهية الأولى حين نطق محمد بن عبد الله بالآيات القرآنية، أو بالمقاطع والسور على هيئة سلسلة متتابعة أو وحدات متمايزة ومنفصلة على مدار عشرين عامًا، وهذا التبليغ الشفهي الأول ضاع إلى الأبد، ولا يمكن للمؤرخ الحديث أن يصل

إليه أو يتعرف عليه مهما فعل ومهما أجرىٰ من بحوث ... وقد كرست أدبيات هائلة لهذه المسألة من قبل العلماء المستشرقين، وينبغي أن يستمر البحث إذا كان هناك أي أمل في العثور علىٰ مخطوطات موثوقة أكثر قدمًا من النسخة التي نمتلكها حاليًا، ولكن منذ أن فرضت المجموعة الرسمية المغلقة أو الناجزة المتمثلة بالمصحف نفسها، والمسلمون يعارضون حتىٰ إمكانية ترتيب القرآن طبقًا للتسلسل الكرونولوجي للوحدات النصية التي يصعب بالطبع تحديد تواريخها، وبالتالي ترتيبها، إن مجرد التفكير بهذه الاحتمالية مرفوض من قبل جمهور المسلمين)(١).

إذن قد مر القرآن في نظره بالمرحلة الشفهية ثم انتقلت إلىٰ مرحلة التلقي، وبعدها التدوين وتعدد النسخ المكتوبة، ثم توحيد تلك النسخ إلىٰ نسخة نهائية، وهذا ما سنتناوله في الاسم التالي والذي هو: المدونة الرسمية المغلقة.

وقبل الانتقال إليه يجدر بنا أن ننبه إلىٰ أن هذا الاسم ليس من بنات فكره حقيقة، وإنما هو اسم مغصوب من نقاد الكتاب المقدس ليس إلا، وقد حاول الغاصب أن يسقطه علىٰ القرآن الكريم إسقاطًا

---

(١) القرآن الكريم من التفسير الموروث إلىٰ تحليل الخطاب الديني (ص: ٣٨-٣٩).

دون مراعاة لفارق المقياس، ولا ظروف النشأة والوجود، ولا دلائل الكتاب ومعجزاته وبيناته، يقول أركون: (أود أن أذكر هنا بأن مفهوم (الخطاب النبوي) كان قد بُلوِر أو نُحت انطلاقًا من التحليل الألسني والسيميائي الصرف للخطاب الديني المتجلي في التوراة والإنجيل والقرآن، وبالتالي فهو ينطبق علىٰ هذه المجموعات النصية الثلاث، وهذا يعني أن الكتب الثلاثة تتميز بخصائص لغوية وسيميائية دلالية مشتركة ومتشابهة، وهي خصائص تميز الخطاب الديني عن غيره من الخطابات علىٰ الصعيد اللغوي المحض؛ كالخطاب الفلسفي مثلًا، أو الخطاب المنطقي الذي يستخدم اللغة بطريقة مختلفة عن طريقة الخطاب الديني، وهذا ما اكتشفه العلماء بعد التحليل الدقيق لخطاب التوراة والإنجيل والقرآن؛ ولهذا السبب يحق لنا أن نتحدث عن شيء اسمه: الخطاب النبوي أو خطاب النبوة أو خطاب الأنبياء ... وهذا التمييز يتيح لنا أن نتجاوز معرفيًا الآراء اللاهوتية الشائعة عن مفهوم الوحي، ولكنه لا يتيح لنا أن نتجاوزها وجوديًا أو حياتيًا؛ لأنها مغروسة في أذهان الملايين من المؤمنين منذ قرون عديدة، وهذه الآراء اللاهوتية الشائعة عن الوحي كانت قد بُلورت من قِبل المفسرين في الطوائف الدينية الثلاث، أي: الطائفة اليهودية، فالطائفة المسيحية، فالطائفة الإسلامية مع ذاكراتها الثقافية الجماعية المتمايزة عن بعضها

البعض، فعلىٰ الرغم من أنها جميعًا تنتمي إلىٰ دين التوحيد، إلا أنها طورت ذاكرات جماعية، أي: تراثات دينية ثقافية لغوية مختلفة كثيرًا، بل ومتنافسة ومتصارعة تاريخيًّا ...)⁽¹⁾.

وما هي إلا محاولة منه (لزرع مجموعة من المصطلحات التي نبتت وترعرعت في تربة غير التربة الثقافية الإسلامية ... مع تسليم تام منه بما يُنحت من مصطلحات في الضفة الأخرىٰ للبحر الأبيض المتوسط، من دون أدنىٰ دراسة نقدية لمحتواها؛ كي يتسنىٰ معرفة قدرتها علىٰ التأقلم مع خصائص التربة الجديدة التي يراد زرعها فيها، مع أنه بادٍ للعيان عمق الاختلاف بين التربتين)⁽²⁾.

◆

۞ المدونة الرسمية المغلقة:

تفوح رائحة الاتهام للقرآن الكريم ويشمها كل من رأىٰ هذه التسمية، فأركون يريد بهذا الاسم أن يكرس كون القرآن الذي بين أيدينا ليس هو القرآن الذي نزل علىٰ النبي محمد ﷺ، وإنما انتقل من مرحلة اللفظ إلىٰ الكتابة، بل مر بالعديد من المراحل حتىٰ وصل إلىٰ

---

(١) القرآن من التفسير الموروث إلىٰ تحليل الخطاب الديني (ص: ٧٨)، الحاشية (١).

(٢) القرآن الكريم والقراءات الحداثية، د. الحسن العباقي (ص: ٧٤).

النسخة التي بين أيدينا، فإن ما بين أيدينا هو المصحف الذي دون بعد موت النبي ﷺ بسنوات بل بقرون!! وليس هو القرآن؛ لأن القرآن هو ما نزل على النبي ﷺ وليس هو الموجود بين أيدينا اليوم!!

يقول أركون: (النص الذي نريد قراءته قصير نسبيًّا، وهو يشكل جزءًا من نص أكبر وأكثر اتساعًا كان قد نقل إلينا تحت اسم: القرآن!!

من الناحية الألسنية أو اللغوية يمكن القول بأن القرآن عبارة عن مدونة منتهية ومفتوحة من العبارات أو المنطوقات المكتوبة باللغة العربية، وهو مدونة لا يمكن أن نصل إليها إلا عن طريق النص الذي ثبت حرفيًّا أو كتابيًّا بعد القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، إن كلية النص المثبت على هذا النحو كانت قد عُوملت بصفتها كتابًا واحدًا أو عملًا متكاملًا)⁽¹⁾.

إذن هو يعتمد هذا الاسم بعد أن حمله جملة من الدلالات والمفاهيم، بدءًا بعدم الثقة بوعد الله تعالى بحفظ القرآن، ومرورًا بالتشكيك في النبي ﷺ الذي كان يأمر بكتابة القرآن حين نزوله، والطعن في الصحابة الذين تولوا جمع القرآن.

---

(١) القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني (ص: ١١٤).

وأم العجائب التي لم نسمعها حتىٰ من ألد أعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم أنه يزعم أن القرآن لم يثبت كليًّا وينتهي من جمعه إلا بعد القرن الرابع الهجري، يقول شارحه هاشم صالح معلقًا: (القرآن لم يثبت كليًّا أو نهائيًّا في عهد عثمان علىٰ عكس ما نظن، وإنما ظل الصراع حوله محتدمًا حتىٰ القرن الرابع الهجري حين أغلق نهائيًّا باتفاق ضمنيٍّ بين السنة والشيعة؛ وذلك لأن استمرارية الصراع كانت ستضر بكلا الطرفين، بعدئذٍ أصبح معتبرًا كنصٍّ نهائي لا يمكن أن نضيف إليه أي شيء أو نحذف منه أي شيء، وأصبحوا يعاملونه كعمل متكامل علىٰ الرغم من تنوع سوره واختلافها فيما بينها من حيث الموضوعات والأساليب)(١).

يقول هذا وكأن التاريخ حفظ لنا نسخًا من القرآن كما حفظ نسخ الأناجيل النصرانية، ولا يعرف في التاريخ كله أن أحدًا من المؤرخين- سواء من المسلمين أو أعدائهم- ذكر شيئًا من ذلك، فكيف عرفه أركون؟!!

وحين يقول أركون: (أفضل أن أدعوه بالنص الرسمي المغلق، والذي استهلكته الأمة المفسرة، عاشت عليه طيلة قرون وقرون، وسوف تستهلكه

---

(١) المرجع نفسه (ص: ١١٤)، الحاشية (١).

أيضًا طيلة فترة مقبلة لا يعرف إلا الله مداها بصفته تنزيلًا أي: وحيًا معطى)⁽¹⁾، فهو يريد منا أن نكون مستهلكين لمنتجات الغرب في كل شيء، حتى في الأفكار والمصطلحات والمفاهيم، وحتى في القضايا التي خصنا الله بها وهو القرآن الكريم والمعجزة الخالدة، وهذه بطبيعة الحال حالة بغيضة مستشنعة عند أولي النهى، فكما رأينا الحال في منبت الاسم الأول الذي ناقشناه من قبل، نجد هذا الاسم أيضًا مسروقًا من الفضاء الغربي وليس مخترعًا من عقل أركون، وفي هذا يقول هاشم صالح شارحًا معنى المدونة: (المدونة هي المصطلح العربي المقابل للمصطلح الفرنسي: (corpus)، وكان يمكن أن نترجمه بالمجموعة النصية أو النصوصية، فالقرآن مشكل من مجموعة نصوص (أو سور) مختلفة الطول، وأما مصطلح الظرف العام للخطاب فيقابله بالفرنسية المصطلح التالي: (la situation de discourse)، وهو يعني أن كل خطاب أو كلام يقال داخل ظرف معين أو أحوال معينة، والذين يحضرون الجلسة التي قيل فيها هذا الكلام يفهمونه بشكل أفضل من الغائبين الذين يطلعون عليه قراءة)⁽²⁾.

وأما مصطلح (الرسمية) فينم عما يدور كثيرًا في كتاباته من الإيحاء بأن هذا النص هو النص الذي ألزم الناس به رسميًّا مع عدم

---

(١) الفكر الأصولي (ص: ٥٧).

(٢) القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني (ص: ١١٤)، الحاشية (٢).

قناعتهم به!! وإنما فرض عليهم ذلك بقوة السلطان!! وما فيه من تهويلات وتقديس مصدره منظومة السلطة!! فجمهور الناس في ذلك الزمن-حسب زعمه- كانوا يعلمون أن هذا النص ليس هو الذي نزل على النبي ﷺ!! كما أنهم يوقنون أيضًا بأن القداسة التي أعطيت للقرآن مفتعلةٌ من السلطة ليس إلا!! تمامًا كحال الأناجيل التي كُتبت من بعض الحواريين ثم نالت وسام القداسة فيما بعد.

يقول أركون: (فجميع الطوائف كانوا قد تفننوا في رفع المدونة الرسمية المغلقة إلىٰ مرتبة الكتاب المقدس)(١)، ويقول في موضع آخر: (نجد إرادة إعلاء الكتاب العادي والتسامي به إلىٰ مرتبة الكتاب المقدس تبلغ ذروتها في عملية التنكير والتقنيع عندما تؤكد أننا نستطيع أن ننتقل من الأناجيل لكي نصل مباشرةً إلىٰ الوحي المتجسد في المسيح، أو أن المصحف- أي: المجلد الذي يحتوي علىٰ كل النصوص القرآنية- هو من نوع الطابع غير المخلوق للقرآن في كونه كلام الله)(٢).

ويصور لنا أركون حجم النزاعات والشقاقات الهائلة التي كانت تدور بين الصحابة حين الجمع، والتي تم حجبها وحظرها عن ساحة النقاش، وقد انتهت باستخدام الخليفة لقوته وسلطته وفرض رأيه علىٰ

---

(١) المرجع نفسه (ص: ٦٢).

(٢) المرجع نفسه (ص: ٦٢).

الناس، وألزم الناس بمدونته والتي صبغها بالصبغة الرسمية كما يزعم!!

يقول أركون: (إن غياب صحابة النبي ﷺ والنقاشات التي تفاقمت بين المسلمين الأوائل دفعت الخليفة عثمان إلىٰ جمع كلي للتنزيل في مدونة واحدة تدعىٰ المصحف وأعلن أن الجمع قد انتهىٰ وأن النص الذي أثبت لا يناله التغيير وأتلفت المدونات الجزئية لكي لا تؤجج الخلافات في صحة التبليغ المحفوظ وهذا يسوغ مصطلح المدونة الرسمية المغلقة)⁽¹⁾.

ولننتقل إلى هذا المصطلح الأخير، ألا وهو مصطلح (مغلقة)، والذي يعرض بفعل الصحابة الذين أغلقوا النص القرآني بعد أن كان مفتوحًا لكل أحد!! فإن أركون يحاول فتحه بعد ذلك الإغلاق لتحسيناته اللغوية!! يقول أركون: (علىٰ الرغم من أن المدونة القرآنية أصبحت مغلقة نهائيًا وبشكل لا رجوع عنه من الناحية اللاهوتية، فإننا نستطيع أن نقبل تاريخيًا بأنها تظل مفتوحة علىٰ التحسينات النصية التي قد يقدمها النقد الفيلولوجي أو اللغوي- التاريخي، ولكن هذه التحسينات تظل افتراضية جدًا مشكوكًا فيها، وهي علىٰ أية حال لو حصلت فلن تعدل من مبادئ القراءة التي نبلورها هنا)⁽²⁾.

---

(١) نافذة علىٰ الإسلام (ص: ٦١)، الفكر الإسلامي- نقد واجتهاد (ص: ٦٥).

(٢) القرآن من التفسير الموروث إلىٰ تحليل الخطاب الديني (ص: ١١٥).

ولا أدري كيف رضي لنفسه بالانحطاط إلىٰ هذه الدركة من الدركات؟! كيف يدعي إمكانية تقديم التحسينات النصية علىٰ القرآن الذي استعصىٰ علىٰ العرب الأقحاح الإتيان بآية من مثله، بل علىٰ العالم أجمع، بل كان التسليم من فصائحهم كما رأينا في فاتحة بحثنا هذا؟! وما زال التحدي قائمًا ولن يزال حتىٰ قيام الساعة، فذاك قول الله ومن أصدق من الله قيلًا؟! ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وكيف لهذا الذي اعترف بعظمة لسانه وأقر بعجزه عن البيان أن يداني ما امتلك ناصية البيان ووقف دونه أرباب اللسان؟!

إننا لو بحثنا في كتابات أركون ولغته وجدناه يئنّ ويتوجع من عدم قدرته علىٰ بيان أفكاره لطلبته!! ويشكو طلبته عدم استيعابهم لما يقدمه لهم من أطروحات؛ لما فيها من الغموض والعي والعجز عن البيان! يقول أركون: (معظم الطلبة الذين قرؤوا كتبي يشكون من صعوبة فهم الجهاز المفهومي أو المصطلحي الذي أستخدمه وأواصل تجديده وإثراءه انطلاقًا من النصوص والمؤلفات والتجارب الفكرية الإسلامية في الواقع)(١)، ثم هو يريد إضافة التحسينات النصية

---

(١) المرجع نفسه (ص: ٨).

على كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي اعترف بفصاحته وعلو شأنه القاصي والداني والعدو والموالي!!

إذن نجد أركون على عكس الأسماء القرآنية للقرآن الكريم يحاول التشبث بأسماء مادية جامدة يمكن التعامل معها بالفكر المادي الغربي، وتعاطيها بالمناهج المادية الحديثة، ولو كلفه الأمر أن يحرف حقيقة القرآن وركائزه الأساسية، فجميع الأسماء التي يقترحها أسماء جامدة لا تحمل أي معنى من المعاني الإيمانية، وهي في ذات الوقت تحاول أن تجعل من نفسها عباءةً يدخل تحتها جميع كتب أهل الأديان، وهو ما لمسناه مثلًا في الاسم الأول (الخطاب النبوي)، ونجده أيضًا في هذا الاسم (المدونة الرسمية المغلقة).

◆

◈ الظاهرة القرآنية أو الحدث القرآني:

قد يتبادر إلى الذهن أن هذا الاسم ليس كالأسماء السابقة التي هي مشحونة بالشحنات المادية ومتأثرة بالمناهج الغربية الحديثة، ولكن الأمر ليس كذلك، ولنترك الكلام لأركون الذي لم يأبه بالتصريح بغرضه من استبداله باسم القرآن الكريم هذا الاسم حيث يقول: (استخدمت هنا مصطلح: (الظاهرة القرآنية) ولم أستخدم مصطلح القرآن قصدًا لماذا؟ لأن كلمة قرآن مثقلة بالشحنات والمضامين اللاهوتية، ومن ثم فلا يمكن

استخدامها مصطلحًا فعالًا من أجل القيام بمراجعة نقدية جذرية لكل التراث الإسلامي وإعادة تحديده أو فهمه بطريقة مستقبلية استكشافية، فأنا أتحدث هنا عن الظاهرة القرآنية كما يتحدث علماء البيولوجيا عن الظاهرة البيولوجية أو التاريخية)⁽¹⁾.

فليس هذا الاسم بمنأىٰ عن مشروعه الذي قام عليه، وهو تذويب المصطلحات والمفاهيم الشرعية التي تسمو بنفوس المؤمنين؛ ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، ويهبوا للعمل بما شرع الله ويتعظوا بمواعظه، ولكن ذلك لم يرض أركون وأساتذته؛ ولذا يريد أن يستبدل بهذه الشحنات الإيمانية- كما يسميها- مصطلحات جافة جامدة مادية، لا تفرق بين ما هو إلهي نازل من عند رب السموات والأرض ومحفوظ بحفظ أعظم الحافظين وبين ما هو موكول حفظه إلىٰ الإنسان الضعيف.

إن ما يؤرق أركون فعلًا هو أن المسلمين منذ نزول القرآن وإلىٰ اليوم يؤمنون به، ويعملون بأوامره ونواهيه، ويعظمون ما فيه تعظيمًا لقائله، وبمجرد ذكر اسمه يستحضرون كل تلك المعاني، ولكن ذلك بالطبع سيمنع مشروع أركون التقويضي الذي يرنو إلىٰ هدم كل هذه

---

(١) الفكر الأصولي واستحالة التأصيل (ص: ١٩٩-٢٠٠).

الحقائق وادعاء أن القرآن مبتور أو منقوص أو مختلق مصنوع بأيدي مهرة علىٰ مستوىٰ رفيع من الدهاء والمكر!! ولذلك ابتكر فكرة التفريق بين القرآن والمصحف والفصل بين مرحلة التنزيل ومرحلة التدوين؛ ولذا نجده يجمع قواه ليرفع جسرًا وهميًا لتجاوز كل تلك العقبات التي تواجهه، ليثبت تاريخية القرآن الكريم كما يقول، ولكن ذلك الجسر أوهن من بيت العنكبوت حقيقة، وهو ما يصرح به هاشم صالح حيث يقول: (إن أركون يفضل استخدام هذا المصطلح لكي يغرس القرآن في التاريخية، ولكي يزيل عنه تلك الشحنات اللاهوتية المرعبة التي تحول بيننا وبين فهمه علىٰ حقيقته، ينبغي تحييد الهالة اللاهوتية- ولو للحظة- لكي نستطيع أن ندرس النص في كل ماديته اللغوية ومعانيه التي تعكس حتمًا أجواء بيئة معينة وزمن معين)(١).

يريد أركون أن يجعل القرآن ظاهرة طبيعية يمكن قياسها ودراستها بالمنهج العلمي (التجريبي)، ظهر في زمان ومكان معين ليحل إشكالاته ويتجاوز عقباته، وكانت له دواعيه وأسبابه المرتبطة بزمنه.

ويظهر هذا جليًا من تعريفه للمصحف حيث يرىٰ أنه: (عبارة عن مجموعة من العبارات الشفهية في البداية، ولكنها دونت في ظروف

---

(١) المرجع نفسه (ص: ١٩٩).

تاريخية لم توضح حتىٰ الآن، أو لم يكشف عنها النقاب، ثم رفعت هذه المدونة- أي: المصحف- إلىٰ مستوىٰ الكتاب المقدس بواسطة العمل الجبار والمتواصل لأجيال من الفاعلين التاريخيين، واعتبر هذا الكتاب بمثابة الحافظ للكلام المتعالي لله، والذي يشكل المرجعية المطلقة الإجبارية التي ينبغي أن تتقيد بها كل أعمال المؤمنين وتصرفاتهم وأفكارهم)⁽¹⁾.

إذن لا داعي لتقديسه وإعطائه مكانًا فوق مكانه، لا داعي لاعتقاد أنه منزل من عند الله! لا داعي للإيمان به والعمل بما فيه لأنه لن يحل إشكالات زماننا! لا داعي لاعتقاد أنه كلام الله! لا داعي للنزاع مع من ادعىٰ أنه مخلوق لأنها في الحقيقة محاولة لإعطاء القرآن منزلته!!

فالمعتزلة علىٰ حد تعبير أركون (عندما دافعوا عن مفهوم خلق القرآن كانوا قد أحسوا بالحاجة إلىٰ دمج كلام الله في نسيج التاريخ، وإذا ما استعاد الفكر الإسلامي هذه الفكرة فإنه حينئذٍ سوف يمتلك الوسائل الكفيلة بمواجهة المشاكل التي تثار علىٰ الفكر المعاصر من كل حدب وصوب بمصداقية أكبر وابتكارية أقوىٰ وأعظم)⁽²⁾.

◆

---

(١) المرجع نفسه (ص: ٤١).

(٢) الفكر الإسلامي قراءة علمية محمد أركون (ص: ٨٢).

الخاتمة:

إن (القرآن) بهذا الاسم ذكره الله ﷻ وسماه به في كتابه فيما يربو على تسع وستين آية، وتداولته الأجيال المسلمة جيلًا بعد جيل، يحفظه الصبيان في كتاتيبهم، والحفاظ في محاريبهم، والعلماء في دروسهم، والباحثون في قماطرهم، ويقرؤه كل مسلم ويعمل به كل مؤمن منذ عهد النبوة، ولعظم مكانته وسمو منزلته تعددت أسماؤه، فهو الفرقان والكتاب والتنزيل والذكر، (ولكل اسم من هذه الأسماء معنىً ووجهٌ غير معنى الآخر ووجهه)⁽¹⁾، وكل منها يحمل في طياته أطنانًا من المعاني الإيمانية.

ولكن هذا أثار حسد المغرضين وحنقهم، فحاول من حاول أن ينزع عنه تلك القداسة، ويستبدل بتلك الأسماء الشريفة مصطلحات ومفاهيم مغصوبة أحيانًا ومسروقة أحيانًا أخرى، فيجعل ما زرعه نقاد الكتاب المقدس بعهديه القديم والحديث في تربتهم ومناخهم وأرضهم هو ذات الزرع الموصى به للمناخ الإسلامي والتربة الإسلامية؛ ادعاءً أن القرآن كالإنجيل والتوراة، فلابد أن نسقط عليه ذات المناهج وذات المفاهيم، وبالتالي سنصل إلى ذات النتيجة وهو تحريف القرآن.

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٩٤).

وهنا ننتهي بالذي بدأنا به، فقد بدأنا بأول المحاولات لتقويض القرآن الكريم والتي باءت بالفشل، وهنا ننتهي من عرض أواخر تلك المحاولات والتي باءت بالفشل أيضًا، عندها يقف الحصيف العاقل ويتدبر، ولسان حاله: صدق الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه وسلم(١).

* * *

---

(١) إعداد: عمار بن محمد أعظم.

(٨)

عقلَنةُ النَّص

(اعتراضُ الصحابة على بعض الأحاديث وتوظيف الحداثيين)

۞ تمهيد:

يقال: إن جماعةً من المجوس والمزدكية والثنوية وملحدة الفلاسفة جلسوا يومًا يتشاورون، فقالوا: قد تفاقم أمر محمد ﷺ، وطارت في الأقطار دعوته، واتسعت ولايته، واتسقت أسبابه وشوكته، فما السبيل إلىٰ النصر عليهم؟ قالوا: نقاتلهم، فصاح بعضهم وقال: لا مطمع في مقاومتهم بقتال!

ولما سُقط في أيديهم نهض أخبثهم فقال: لا سبيل إلىٰ استنزالهم عما أصروا عليه إلا بمكرٍ واحتيال، ولو شافهناهم بالدعاء إلىٰ مذهبنا لتنمروا علينا، وامتنعوا من الإصغاء إلينا، فسبيلنا أن ننتحل عقيدة طائفة من فرقهم؛ هم أركهم عقولًا، وأسخفهم رأيًا، وألينهم عريكة لقبول المحالات، وأطوعهم للتصديق بالأكاذيب المزخرفات وهم الروافض، ونتحصن بالانتساب إليهم والاعتزاء إلىٰ أهل البيت عن

شرهم، ونتودد إليهم بما يلائم طبعهم من ذكر ما تم علىٰ سلفهم من الظلم العظيم والذل الهائل، ونتباكىٰ لهم علىٰ ما حل بآل محمد ﷺ، ونتوصل به إلىٰ تطويل اللسان في أئمة سلفهم الذين هم أسوتهم وقدوتهم، حتىٰ إذا قبحنا أحوالهم في أعينهم، وما ينقل إليهم شرعهم بنقلهم وروايتهم، اشتد عليهم باب الرجوع إلىٰ الشرع، وسهل علينا استدراجهم إلىٰ الانخلاع عن الدين⁽¹⁾.

هكذا يروي الغزالي حكاية سبب رواج الباطنية، ويبين كيف أنهم تلبسوا بلبوس الدين وتزينوا بحلله حتىٰ يمرروا مشروعهم، ولا يخفىٰ علىٰ أحدٍ أن الأمة الإسلامية متمسكة بدينها وأخلاقها وقيمها ومبادئها، وميسم ذلك أنها لا ترضىٰ بأي فكرٍ دخيلٍ يعارض أصولها الدينية من أن ينشأ ويتجذر فيها، فلا يمكن لكائنٍ من كان أن يأتي إلىٰ عامة المسلمين ليقول لهم: إن صلاتكم هذه مجرد طقوس فلا تصلوها، وإن حدود الله مجرد تضييقٍ وشدةٍ فلا تقيموها، وإن قرآنكم مجرد نصوصٍ تاريخية فلا تقيموا له قدرًا ولا وزنًا! وتلك الحقيقة عرفها الناس مبكرًا حتىٰ إن أهل الكلام كانوا لا يستطيعون تجميل التأويل وإشاعته بين الناس إلا بنسبة ذلك إلىٰ معظم⁽²⁾؛ لما تحمله

---

(١) روىٰ هذه القصة الغزالي في فضائح الباطنية (١٨-١٩) في بيان باعث قيام الباطنية.

(٢) انظر كلام ابن القيم في: مختصر الصواعق (١٦٨)، في بيان أسباب قبول الناس للتأويل.

قلوب المسلمين من تعظيمٍ لذلك الرجل الذي يظنونه ممن يقوم بالإسلام، ولم تغب هذه الحقيقة عن أي أحدٍ على امتداد التاريخ ممن حاول أن يبث أفكارًا جديدة تتنافى مع أصول الإسلام.

وليس الحداثيون بمنأى عن هذا الفعل، بل قد صرحوا بأنه لا يمكن لهم أن يقدموا أفكارهم للناس إلا بعد أن يكسوها بثيابٍ إسلامية تجعلها مقبولةً عندهم، وليس لهم بابٌ للدخول إلى عقول المسلمين وتغيير نمط تفكيرهم وإبدال مبادئهم وإحلال مبادئ الحداثة إلا بهذه الثياب الرقيقة التي يلبسونها أفكارهم لتروج بين الناس كما يقول أحمد أمين: (إن الأزهر لا يقبل الآراء العلمية الحرة، فخير طريقة لبث ما تراه مناسبًا من أقوال المستشرقين أن لا تنسبها إليهم بصراحة، ولكن ادفعها إلى الأزهريين على أنها بحثٌ منك، وألبسها ثوبًا رقيقًا لا يزعجهم مسها، كما فعلتُ أنا في فجر الإسلام وضحاه)⁽١⁾.

فصارت الأفكار من كل حدبٍ وصوب تنتقل على ظهور المصطلحات الإسلامية والاستناد الشرعي، وهذه الأسلمة قد طالت كل شيءٍ حتى أهم مصدرين من مصادر التشريع الإسلامي وهما:

---

(١) ينظر: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي (٢٦٦).

القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ، وقد أثيرت حولهما ادعاءاتٌ كثيرة، وحيكت حولهما شبهٌ لا تنتهي، وكل ذلك من أجل إضعاف حضورهما في حياة المسلمين.

◆

القراءة الحداثية للنصوص الشرعية:

من أكثر الطرق التي مورست علىٰ النصوص الشرعية بغية إفراغها من معانيها: عقلنة النصوص، وقد استخدمت منذ القرون الأولىٰ حين ظهر أهل الكلام المتأولون الذين يردون النصوص الشرعية لشبهٍ عقلية، وظهر أتباعهم الحداثيون ممن لا يؤولون فقط وإنما يردون النصوص بحجة مخالفتها للعقل!

فالقراءة الحداثية للنصوص تجعل العقل هو الحاكم والقاضي، وسلطته هي السلطة الوحيدة التي تعامل بها النصوص الشرعية، وممارسة الحداثيين للعلوم الألسنية (الهرمينوطيقا) في تفسير النصوص الشرعية ومحاكمتها إلىٰ العقل وحده عبر هذه العلوم أدت في النهاية إلىٰ (فوضىٰ تأويلية) و(لانهائية المعاني) للنصوص، وأصبح الحق هلاميًّا، ولكل عقل الحق في تفسيره حسب عقله، وإن شئت فقل بتعبير أدق: حسب هواه!

ومن أجل ذلك يشنع حسن حنفي علىٰ التيار السلفي بأنه يرفع شعار: (قال الله) و(قال رسوله)، أما عنده فـ (لا يعتمد علىٰ صدق الخبر سندًا أو متنًا، وكلاهما لا يثبتان إلا بالحس والعقل طبقًا لشروط التواتر، فالخبر وحده ليس حجةً، ولا يثبت شيئًا، علىٰ عكس ما هو سائدٌ في الحركة السلفية المعاصرة علىٰ اعتمادها المطلق علىٰ: قال الله، و: قال الرسول، واستشهادها بالحجج النقلية وحدها دون إعمال الحس والعقل، وكأن الخبر حجة، وكأن النقل برهان، وأسقطت العقل والواقع من الحساب، في حين إن العقل أساس النقل)⁽¹⁾.

وانظر كيف يتعالىٰ علىٰ النص ليقول: (وكأن الخبر حجة)!! فما الحجة إذن عند أناسٍ مسلمين مؤمنين بالله ورسوله إن لم تكن نصوص الكتاب والسنة حجةً؟! ومن أين له أن السلفيين يستشهدون بالحجج النقلية دون إعمال الحس والعقل، وهم الذين أطروا للعقل الإسلامي، وضبطوا طريقة تفكيره، ونقحوا حتىٰ العلوم المنطقية اليونانية، وكشفوا أخطاءها، وأضافوا إليها الصحيح من الأحكام العقلية؟!

ولكن يريد حسن حنفي أن يشنع فقط علىٰ من يتمسك بالنصوص

---

(١) من العقيدة إلىٰ الثورة (٣٦٨).

الشرعية؛ لأن فيها ما يبطل فكره وتوجهه.

وهذه الباطنية الجديدة التي جاء بها الحداثيون لتفسير النصوص حسب العقول والأمزجة والأهواء أدت إلىٰ فقدن النصوص مرجعيتها؛ ولذلك دأب كثيرٌ منهم علىٰ عقلنة النص الشرعي ورد كثير من النصوص الصحيحة بحجة مخالفتها للعقل، ومن ذلك مثلًا مشروع جمال البنا في كتابه (تجريد البخاري ومسلم من الأحاديث التي لا تلزم)؛ إذ إنه وضع عشر قواعد من عقله، ثم حاكم إليها كل الأحاديث في البخاري ومسلم، ورد كثيرًا منها بحجة أنها تخالف قواعده العقلية، ويدعو إلىٰ تطبيق هذه الفكرة علىٰ سائر الكتب الحديثية، ويؤكد علىٰ أن سبب امتناع المسلمين من الإقدام علىٰ هذه الخطوة ليس هو معرفتهم لشروط البخاري ومسلم، وطريقة جمعهما للأحاديث، وانتقائهما لها في هذين الكتابين، وإنما لأن (العجز أو الخوف أو هما معًا حالًا دون ذلك)(١). كما جاء يحيىٰ محمد في كتابه (مشكلة الحديث)، وحاكم الكثير من الأحاديث إلىٰ العقل، وردها بناءً علىٰ ذلك(٢).

---

(١) انظر مقالًا له علىٰ: المصري اليوم، علىٰ الرابط التالي:
https://www.almasryalyoum.com/news/details/77510

(٢) انظر: مشكلة الحديث (١١١) وما بعدها.

وليست المشكلة في النقد الحديثي للنصوص النبوية، ولا في مدارستها لمعرفة الصحيح والضعيف منها، بل هذا ما فعله أئمة الحديث وصيارفته ببراعةٍ على مدى قرون، لكن المشكلة في أن يكون معيار القبول والرد هو العقل المجرد فحسب.

ومن أجل تخفيف حدة النقد الموجه إلى مثل هذه النظرة الحداثية للنص الشرعي- الحديثي تحديدًا- ما فتئوا يذكرون في كتبهم بأن معارضة النص بالعقل هو ما فعله الصحابة الكرام، وأن الصحابة كانوا يعترضون على أي حديث بعقولهم؛ فما قبلته قبلوه، وما رفضته رفضوه، فادعوا بذلك أن الصحابة هم طليعة الحداثيين بهذا المعنى! فإنهم هم أول من عارضوا الأحاديث التي لا تقبلها عقولهم وردوها(١). وقد ذكروا لذلك أمثلةً عديدة لن نحرص على استيفائها في هذه الورقة العلمية المختصرة، ولكن سنتناول أهمها؛ لنرى مدى دقة هذه الأمثلة في إصابة ما يرومون التأثيل له، وهل فعلًا كان الصحابة يعارضون الأحاديث بعقولهم المحضة فنتأسى بهم؟

◆

---

(١) انظر مثلًا: فصل نماذج للرأي والرواية من كتاب السنة لمحمد الغزالي (١٧)، وأضواء على السنة المحمدية لمحمود أبو رية (١٧٧-١٧٨).

الحديث الأول:

حديث أبي هريرة ﵁، أن النبي ﷺ قال: «من غسَّل ميتًا اغتسل، ومن حمله فليتوضأ»(١).

فهذا الحديث قد عارضته عائشة ﵂ بقولها: (سبحان الله! أموات المسلمين أنجاسٌ؟! وهل هو إلا رجلٌ أخذ عودًا فحمله؟!)(٢).

وعلىٰ قول عائشة ﵂ استند الحداثيون في أن الصحابة قد أصلوا لمعارضة النقل بالعقل كما فعلوه تطبيقًا.

وهذه النظرة الحداثية لمثل هذه الأحاديث نظرة استعجالية قاصرة، فإنهم اعتقدوا وأصلوا لما يريدون، ثم أتوا يبحثون عما يؤيد معتقدهم وفكرتهم، فأخذوا يسوقون أي نصٍّ ظنوا أنه يخدمهم ولو كان النقل كله خاطئًا كما سترىٰ في الأحاديث القادمة. وهذا النص الذي نقلوه ليس فيه أي حجةٍ لما يريدون التقعيد له، وذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن هذا الحديث لم يصح مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ،

---

(١) أخرجه أحمد (٩٨٦٢)، وأبو داود (٣١٦١)، والترمذي (٩٩٣)، وابن ماجه (١٤٦٣).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (١٤٧٢)، وقد ذكر بدر الدين الزركشي أنها قالت ذلك حين بلغها حديث أبي هريرة، فلم يكن حديثًا مستقلًّا انظر: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة علىٰ الصحابة (١٣٢).

وإنما هو موقوفٌ على أبي هريرة ﵁، وبهذا صرح كثيرٌ من العلماء، قال ابن أبي حاتم: (قال أبي: هذا خطأ؛ إنما هو: موقوف على أبي هريرة، لا يرفعه الثقات)(١). وقد تتبع البيهقي طرق الحديث فضعف معظمها، يقول ﵀: (الروايات المرفوعة في هذا الباب عن أبي هريرة غير قوية؛ لجهالة بعض رواتها وضعف بعضهم، والصحيح عن أبي هريرة من قوله موقوفًا غير مرفوع)(٢). وتوارد على هذا كثير من علماء الحديث وعلله.

ومن العلماء من صرح بأنه لا يصح في هذا الباب أي حديث، وممن قال ذلك: الإمام علي بن المديني، وأحمد ابن حنبل، والذهلي، وابن المنذر، وغيرهم من كبار أئمة الحديث(٣)، وبناءً عليه لا يمكن حمل قول عائشة ﵂ على معارضة النص الشرعي بالعقل، فإن كان موقوفًا على أبي هريرة ﵁ فقد خالفته، والخلاف بين الصحابة سائغٌ وواقع، فإذا لم تعارض الحديث المرفوع صار كلامها خارجًا عن نقطة البحث، فإن نقطة البحث هي معارضة نصٍّ نبوي بعقلٍ بشري.

---

(١) علل الحديث (٣/ ٥٠٢).

(٢) السنن الكبرى (١/ ٤٥٢).

(٣) انظر: السنن الكبرى للبيهقي (١/ ٤٤٨-٤٥٢)، والمجموع للنووي (٥/ ١٨٥)، والتلخيص الحبير لابن حجر (١/ ٣٧٠-٣٧١).

الوجه الثاني: على القول بصحة الحديث كما يقوله بعض العلماء- منهم: الترمذي(١)، وابن حجر(٢)، والألباني(٣)- فإن هذا الاعتراض من عائشة ﵂ ليس اعتراضًا عقليًّا متمحضًا عارضت به نصًّا شرعيًّا ثابتًا، وإنما هو توظيفٌ لأدلةٍ أخرى استقرت عندها معانيها التي تقول بعدم نجاسة المؤمن، ومنها حديث أبي هريرة نفسه حين لقية النبي ﷺ في بعض طرق المدينة وهو جنب، فانخنس منه، فذهب فاغتسل ثم جاء، فقال: «أين كنت يا أبا هريرة؟» قال: كنت جنبًا، فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة، فقال: «سبحان الله! إن المسلم لا ينجس»(٤). فهذا الاعتراض من عائشة ﵂ منطلقٌ من دلائل شرعية أخرى تنفي النجاسة، فلما كان مستقرًّا عندها أن المؤمن لا ينجس في حياته، وليس من هدي النبي ﷺ أن يغتسل من مصافحة رجل أو مقابلته أو لمسه، تعجبت من أن يكون الميت ينجس بموته، وهذا مبنيٌّ على تصور أن الاغتسال لا يكون إلا من نجاسةٍ، وهو اجتهادٌ من عائشة ﵂.

---

(١) سنن الترمذي (٢/ ٣١٠١).

(٢) التلخيص الحبير (١/ ٣٧١-٣٧٣).

(٣) يقول: (وبالجملة، هذه خمسة طرق للحديث بعضها صحيح، وبعضها حسن، وبعضها ضعيف منجبر، فلا شك في صحة الحديث عندنا). إرواء الغليل (١/ ١٧٥).

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٣) ومسلم (٣٧١).

والمقصود: أن عائشة ﵂ لم تستخدم العقل المجرد في الاعتراض علىٰ النص الشرعي، وإنما كان اعتراضها لما ثبت عندها من نصوص أخرىٰ، ولذلك حمل بعض العلماء حديث أبي هريرة ﵁ علىٰ أنه منسوخ⁽¹⁾، وحمله آخرون علىٰ الندب لا الوجوب، وليس هذا موضع التفصيل فيه.

◆

الحديث الثاني:

حديث أبي هريرة ﵁، أن النبي ﷺ قال: «**إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتىٰ يغسلها ثلاثًا؛ فإنه لا يدري أين باتت يده**»⁽²⁾.

يقول محمود أبو رية بعد أن أورد هذا الحديث: (لم تأخذ به عائشة وقالت: كيف نصنع بالمهراس⁽³⁾؟!)⁽⁴⁾.

---

(١) يقول ابن حجر: (وقد أجاب أحمد عنه بأنه منسوخ، وكذا جزم بذلك أبو داود). التلخيص الحبير (١/ ٣٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٦٢)، ومسلم (٢٧٨).

(٣) المهراس: صخرة منقورة تسع كثيرًا من الماء، وقد يعمل منها حياض للماء. ينظر: النهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٥٩).

(٤) أضواء علىٰ السنة المحمدية (١٧٧).

ويروىٰ مثل هذا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(١).

فهنا عارض الصحابيان الجليلان هذا النص الشرعي بعقليهما، فاتكأ علىٰ هذا أبو رية ومن ذهب مذهبه في الاحتجاج بأن العقل حكمٌ علىٰ النص كما فعله الصحابة، ومن العجيب أن يذكر هذا أبو رية دون الإشارة إلىٰ أي مصدر، رغم أنه في غير هذا الموضع يشير إلىٰ المصادر! ولكن يزول عجبك حين تعرف أن هذا الاعتراض لا يحفظ ولا يصح عن عائشة وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وليس مذكورًا في أي كتابٍ معتبر!

وبين قوسي اعتراض يحق لنا أن نتساءل: أهذا هو الإنصاف العلمي الموجود لديهم؟! أهذا هو حفظ جناب النبي ﷺ بتبرئته من الأحاديث المنسوبة إليه كما يقول جمال البنا(٢)؟! أم أنه مجرد ردٍّ للأحاديث التي لا تروق لعقولهم ولا تستقيم مع فهمومهم، فيردونها ولو بذكر اعتراضٍ سمعوه حينًا من الدهر، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن أصله وهم يردون بذلك حديثًا في البخاري ومسلم!

وحسبك في انتفاء ثبوت هذا الاعتراض عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن بدر الدين الزركشي لم يذكره في الكتاب الذي ألفه لجمع استدراكات

---

(١) انظر: رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب لأبي نصر عبد الوهاب السبكي (٢/ ٤٣)، وموافقة الخُبر الخَبر لابن حجر (١/ ٤٦١).

(٢) انظر صفحة الإهداء في كتابه: (تجريد البخاري ومسلم من الأحاديث التي لا تُلزم).

عائشة ﵂ على الصحابة، وقد ذكر اعتراضاتها على أبي هريرة ﵁ دون أن يشير إلى هذا إطلاقًا(١)، ويصرح بذلك ابن أمير حاج فيقول: (على أن ما روي عن عائشة وابن عباس قال شيخنا الحافظ- يعني الكمال بن الهمام-: لا وجود له في شيءٍ من كتب الحديث)(٢). فإن كان هذا الاعتراض لا وجود له في أيٍّ من كتب الحديث سقط الاعتداد به والاعتماد عليه، وخابت مساعيهم في تأصيل الاحتجاج بالعقل على النقل بنصٍّ أثبت الحفاظ والعلماء أنه لا أصل له.

◆

◈ الحديث الثالث:

حديث أبي هريرة ﵁، أن النبي ﷺ قال: «الوضوءُ ممَّا مسَّت النَّار، ولو من ثورِ أقط»، فقال له ابن عباس ﵁: يا أبا هريرة، أنتوضأ من الدهن؟ أنتوضأ من الحميم؟

فقال أبو هريرة ﵁: يا ابن أخي، إذا سمعت حديثًا عن رسول الله ﷺ فلا تضرب له مثلًا(٣).

---

(١) انظر: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة (١١٢-١٢٨).

(٢) التقرير والتحبير (٢/ ٣٠٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٧٩).

وهذا اعتراضٌ واضحٌ من ابن عباس ﵁؛ لكن هل هو اعتراضٌ عقليٌّ محض كما فهمه الحداثيون وفرحوا به؟

هذا ما يظنونه حين يستندون إلىٰ هذا الاعتراض فقط دون النظر إلىٰ كل الأحاديث في الباب، ولو نظرت إليها كلها عرفت أن اعترض ابن عباس ﵄ ليس مبنيًّا علىٰ نظرٍ عقلي محض، وإنما علىٰ دليلٍ ثابتٍ لديه، فابن عباس ﵄ يرىٰ أن الحديث منسوخ، وقد روىٰ هو عن النبي ﷺ أنه جمع عليه ثيابه ثم خرج إلىٰ الصلاة، فأتىٰ بهدية خبزٍ ولحم، فأكل ثلاث لقم، ثم صلىٰ بالناس، وما مس ماء⁽¹⁾. فلما عرف ابن عباس أن المحكم في الموضوع وآخر الأمرين هو ترك الوضوء مما مست النار، ثم رأىٰ أن أبا هريرة ﵁ لا زال يحدث بذلك الحديث عارضه بضرب الأمثلة العقلية التي تعضد ما ثبت عنده من عدم الوضوء مما مست النار، فليس هو إذن اعتراضًا مؤسسًا علىٰ دليلٍ عقليٍّ محض، وإنما هو بالتتبع للدليل الشرعي.

ومما يؤكد هذا المعنى روايته الأخرىٰ التي يقول فيها محمد بن عمرو ابن عطاء: كنت مع ابن عباس ﵄ في بيت ميمونة زوج النبي ﷺ في المسجد، فجعل يعجب ممن يزعم أن الوضوء مما مست النار،

---

(١) أخرجه مسلم (٣٥٩).

ويضرب فيه الأمثال ويقول: إنا نستحم بالماء المسخن ونتوضأ به وندهن بالدهن المطبوخ(١). وهذا واضحٌ وصريح في أن ابن عباس ﷺ أراد أن يقرر ما تأكد لديه بضرب الأمثال العقلية للتأكيد على هذا الحكم الشرعي.

وهناك أمثلةٌ أخرى عديدةٌ يذكرونها في كتبهم، ويحاولون الاتكاء عليها وإلقاء حوائم الريب في قلوب المسلمين حول الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، وينسبون ذلك إلى الصحابة وأنهم هم مبدأ هذا الأمر، ألا وهو الاعتراض العقلي المحض على الأحاديث الثابتة، وهم بذلك يريدون أن يلبسوا مشروعهم لبوسًا إسلاميًّا، وأن يتمسحوا في إنكارهم لأحاديث صحيحة بقفى الصحابة الكرام حتى يقولوا: نحن نفعل ما فعلوا! وقد تبين كيف أن كل التطبيقات التي يوردونها للصحابة لا تسعفهم؛ بل تنقلب عليهم، فقد كان النص عند الصحابة هو المقدم، وفي سبيل فهمه وإدراكه وحفظه يبينون الاعتراضات من أحاديث أخرى ثبتت لديهم، ثم يعضدون ذلك بالنظر العقلي.

◆

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧١٣).

◈ تعظيم الصحابة للسنة:

فإن قيل: لماذا تجعلون النظر العقلي عند الصحابة تبعًا للدليل الشرعي؟ أليس هذا تهكمًا منكم إذ يمكن أن يكون العكس؟!

نقول في جواب ذلك: يدل علىٰ هذا الروايات الكثيرة عن تمسك الصحابة بالسنة ورجوعهم إليها، وكم روت كتب العلماء من روايات عديدة تثبت كيف أن كبار الصحابة رجعوا عن آرائهم الشخصية واجتهاداتهم بمجرد بلوغ النص الشرعي إليهم.

ومن أصدق الأحاديث في هذا الباب- ما دام أن أكثر ما يروىٰ في هذا الباب هو عن عائشة- أن معاذة رَحِمَهَا اللَّهُ قالت: سألت عائشة فقلت: ما بال الحائض تقضي الصوم، ولا تقضي الصلاة؟! فقالت: أحرورية أنت؟! قلت: لست بحرورية ولكني أسأل، قالت: كان يصيبنا ذلك، فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة⁽¹⁾.

فانظر كيف أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تغضب علىٰ من حاولت إقحام النظر العقلي المحض مقابل النص الشرعي، فكيف يتصور منها وهي صاحبة هذا الموقف العظيم أن تعارض النصوص بعقلها المحض دون مستند شرعي مسبق؟!

---

(١) أخرجه مسلم (٣٣٥).

ورجوع الصحابة إلىٰ النص الشرعي إن تبين لهم وترك اجتهاداتهم وآرائهم هو الأصل، وعليه فإن من يطالب بالدليل هو من يقول: إن الصحابة مارسوا عقلنة النصوص وردوها بناءً علىٰ عقولهم، والأمثلة في رجوعهم إلىٰ النصوص كثيرة، منها أن عمر بن الخطاب ﵁ كان يقول: الدية للعاقلة، ولا ترث المرأة من دية زوجها، حتىٰ أخبره الضحاك بن سفيان الكلابي أن رسول الله ﷺ كتب إليه: «أن أورث امرأةَ أشيم الضبابي من دية زوجها»، فرجع عمر عن قوله(١). فهذا أمير المؤمنين رجع إلىٰ حديث النبي ﷺ لمجرد وروده إليه من ثقة، وترك اجتهاده السابق.

ومن ذلك ما رواه أبو الجوزاء قال: سألت ابن عباس عن الصرف يدًا بيد، فقال: لا بأس بذلك اثنين بواحد، أكثر من ذلك وأقل، قال: ثم حججت مرةً أخرىٰ والشيخ حي، فأتيته فسألته عن الصرف، فقال: وزنًا بوزن. قال: فقلت: إنك قد أفتيتني اثنين بواحد، فلم أزل أفتي به منذ أفتيتني! فقال: إن ذلك كان عن رأيي، وهذا أبو سعيد الخدري يُحدِّث عن رسول الله ﷺ، فتركت رأيي إلىٰ حديث رسول الله ﷺ(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٤٦)، وأبو داود (٢٩٢٧)، وابن ماجه (٢٦٤٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٢) أخرجه أحمد (١١٤٧٩)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٥/ ١٨٧).

والوقائع في هذا كثيرة، وبناءً عليها يمكننا الجزم بأن الصحابة - رضوان الله عليهم- لم يقدموا عقولهم على النص الشرعي، وإنما أعملوها في فهم الأحاديث، ونفي التعارض بينها، وبيان الناسخ والمنسوخ.

ولم يرد الحداثيون من هذه الدعوى إثبات أن الصحابة قد عقلنوا النصوص فقط، وإنما أرادوا شيئًا آخر خلف هذا، وهو أنه ما دام أن الصحابة قد نقدوا المتون، فإنه يجب علينا أن نحذو حذوهم، وقد دأب كثيرون على اتهام المسلمين بأنهم اقتصروا على نقد الأسانيد فقط دون النظر إلى المتون، كما يدعي ذلك المستشرقون ومن يقتاتون على موائدهم من الحداثيين المعاصرين، فيصورون علم العلل عند المسلمين وكأنه منصبٌّ على الإسناد فقط، ثم لا يعنيهم المتن في شيء، كما يقول في ذلك أبو رية: (ولكن العلماء والأدباء لم يولوه ما يستحق من العناية والدرس، وتركوا أمره لمن وقفوا بعلمهم عندما يتصل بالسند فحسب، أما المعنى فلا يعنيهم من أمره شيء!)[1].

وانطلاقًا من هذه الحجة يريدون رد الأحاديث الصحيحة المتفق عليها من باب نقد المتن، وعدم موافقتها للعقول والآراء أو الواقع

---

[1] أضواء على السنة المحمدية (٧).

المعاصر، وهذه الدعوىٰ مجرد وهمٍ يتوهمونه، ولئن كانت عنايتهم بالأحاديث والنصوص قليلة، ولا يعرفون دقة علم المصطلح وعلم العلل، فإن هذا عيب في القارئ لا في الواقع، لكنهم يتتلمذون علىٰ أمثال جولد تسيهر من المستشرقين، فيكررون أوهامهم، ويجرون سخائم قلوبهم فيقدمونها للناس بتغيير بعض الألفاظ والعبارات، وإن شئت فقارن بين قول جولد تسيهر حين قال: (نقد الأحاديث عند المسلمين قد غلب عليه الجانب الشكلي منذ البداية، فالقوالب الجاهزة هي التي يحكم بواسطتها علىٰ الحديث بالصحة أو بغيرها ... فإن المتن يصحح ولو كان معناه غير واقعي، أو احتوىٰ علىٰ متناقضاتٍ داخلية أو خارجية)⁽١⁾.

ثم اقرأ كلام أحمد أمين إذ يقول: (وقد وضع العلماء للجرح والتعديل قواعد ليس هنا محل ذكرها؛ ولكنهم- والحق يقال- عنوا بنقد الإسناد أكثر مما عنوا بنقد المتن، فقل أن تظفر بنقدٍ من ناحية أن ما نسب إلىٰ النبي ﷺ لا يتفق والظروف التي قيلت فيه، أو أن الحوادث التاريخية الثابتة تناقضه)⁽٢⁾.

---

(١) ينظر: جهود المحدثين في نقد متن الحديث النبوي الشريف (٤٤٩).

(٢) فجر الإسلام (٢٣٨).

وهذا التتلمذ علىٰ كل ما يقوله المستشرقون وقبوله دون تمحيص أو بذل جهد بسيط في البحث يوقعهم في مثل هذه البلايا، وقد مر بنا كيف أن بعضهم قد عارض حديثًا صحيحًا في البخاري ومسلم برواية غير ثابتةٍ في كتب الحديث، ولم يخرجه ولم يشر إلىٰ مصدره، فليس المهم أن يتثبت، وإنما المهم عنده أن يحشو الكتاب بما يؤيد فكرته المسبقة، والتي يريد الاستدلال عليها بأي دليل.

❁ **ومما يرد به على هذه الدعوى:**

(١) أن الصحابة أنفسهم قد عاملوا مُتون الأحاديث بتمحيصها وإن صححوا الأسانيد، فكانوا يستشكلون بعض متون الحديث وإن كانوا لا يشكون في قائله، كما قالت عائشة عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حينما روىٰ حديثًا ظنت أنه معارضٌ لما استقر عندها من نصوصٍ أخرىٰ، قالت: (أما إنه لم يكذب، ولكنه نسي أو اخطأ)(١).

فهل هذا إلا قراءة للمتن مع صحة السند؟! وهذه القراءة للمتن هي التي جرىٰ عليها من بعدهم من أئمة الحديث، فساروا علىٰ منهجهم من عدم الاعتراض علىٰ النص بمجرد العقل، وإنما بنصوصٍ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٧٥٨).

أخرىٰ موضحة لهذا المتن، فليس في منهج الصحابة ما يمكن للحداثيين أن يتمسكوا به.

(٢) أن المحدثين حين وضعوا شروطًا لصحة الحديث قالوا: من شروطه عدم الشذوذ وعدم العلة، وليس هذا متعلقًا بالسند فقط، وإنما بالمتن أيضًا، وبناءً عليه فإن علماء الحديث لا يمكن أن يصححوا حديثًا واحدًا إلا بعد النظر في سنده ومتنه.

(٣) أن علماء الحديث صنفوا مصنفاتٍ عديدة أكثر ما تتمحور حول متن الحديث، لا حول سنده، مثل كتاب: (اختلاف الحديث) للإمام الشافعي، و(تأويل مختلف الحديث) لابن قتيبة، و(مشكل الآثار) للطحاوي، وغير هذا كثير.

(٤) عني علماء الحديث بالغريب والتصحيف والمدرج رغم صعوبة ذلك، فانظر كيف كانوا يدركون أن المتن فيه إدراجٌ في بدايته أو وسطه أو آخره، وتأمل كيف يمكن إدراك مثل هذا الأمر الدقيق بالاعتناء بالمتن، وجمع متون الأحاديث بعضها إلىٰ بعض؛ للنظر فيها كلها وفحصها، ثم بيان الزائد علىٰ قول النبي ﷺ.

وليس المقصد هنا بيان مناهج نقد المتن عند المحدثين ولا توافره وكثرته، وقد أفرد في ذلك مصنفات(١)، وإنما بيان أن الصحابة الكرام ومن تبعهم اهتموا بالمتن، وكان ردهم لبعض الأحاديث أو اعتراضهم عليها ليس لمجرد النظر العقلي، مثل ما يفعلونه هم، وإنما لنصوصٍ أخرىٰ توجب ذلك.

وأخيرًا: لم يكنِ الصحابة الكرام ليمرروا أي حديثٍ دون أن يمحصوه ويفحصوه ويعارضوه بمثله، وسار علىٰ هذا أهل الحديث من بعدهم، وابتكروا من أجل حفظ الحديث علومًا جديدةً لم يوجد مثلها عند سائر الأمم كعلم العلل، فلم يكونوا سببًا في إصابة المسلمين بالعقم الفكري كما يقوله أحمد أمين(٢)، وإنما محصوا ودققوا وبرعوا في علم العلل والمصطلح، وكل ذلك من أجل التحقق من المتن الحديثي، ودقة إصابة الحكم ومعرفة الناسخ والمنسوخ.

---

(١) انظر علىٰ سبيل المثال: جهود المحدثين في نقد متن الحديث النبوي الشريف لمحمد طاهر الجوابي، ونقد المتن عند المحدثين لإبراهيم ابن محمد السعوي، ومنهج النقد عند المحدثين لمحمد مصطفىٰ الأعظمي.

(٢) يقول عن الفكر الإسلامي بعد موت المعتزلة: (علا منهج المحدثين، وكاد العلم كله يصبح رواية، وكان نتيجة هذا ما نرىٰ من قلة الابتكار وتقديس عبارات المؤلفين وإصابة المسلمين غالبًا بالعقم، حتىٰ لا تجد كتابًا جديدًا أو رأيًا جديدًا بمعنىٰ الكلمة). ظهر الإسلام (٢/ ٤٨-٤٩).

وبهذا تيقنا بأن المستقر عند الصحابة هو التسليم للنص الشرعي، والخضوع له، وتعظيمه، وتقديمه على كل العقول والآراء والاجتهادات، وهذا التسليم نفسه هو معطى عقلي بناء على ما ثبت عندهم من صدق النبي ﷺ وكمال ما جاء به، فليس في منهجهم ما يتكئ عليه الحداثيون ولا من سار سيرهم وانتهج نهجهم⁽¹⁾.

وخلاصة القول:

كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولم يكن أحدٌ من الصحابة يورد عليه معقولًا النص البتة، ولا عرف فيهم أحد- وهم أكمل الأمة عقولًا- عارض نصًّا بعقل)⁽²⁾.

والحمد لله رب العالمين⁽³⁾.

* * *

---

(١) يراجع للاستزادة كتاب: دفع دعوى المعارض العقلي عن الأحاديث المتعلقة بمسائل الاعتقاد، للدكتور عيسى النعمي (٦٧-٧٩).

(٢) ينظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٢/ ٤٠٤).

(٣) إعداد: إبراهيم بن محمد صديق.

(٩)

الحُدُودُ الشَّرْعِيَّة

بَيْنَ الوَحْيِ والحَدَاثَةِ

ظل ملف تطبيق الشريعة مغلقًا ردحًا من الزمن، فلم تكن الشبهات تورد عليه بمجمله إلا ما كان علىٰ بعض الحدود دون بعض، وما إن أعلن أتاتورك جمهورية تركيا العلمانية الحديثة حتىٰ فُتح هذا الملف الذي كان مخبوءًا في سراديب الذاكرة العلمانية، فطرح بقوة، ونوقش من كافة الطوائف الدينية، ولا زال الجدال فيه قائمًا بين الاتجاهات الرئيسية التي تناولت المسألة من المعاصرين.

◆

۞ المراد بتطبيق الشريعة:

الأول: تطبيق شريعة الله في كل الجوانب العقدية والعملية والمعاملات، وقيام دولة علىٰ الهدي الإسلامي الكامل دون اجتزاء شيءٍ منه.

الثاني: الدعوة إلىٰ تطبيق الحدود الشرعية.

والمتابع بعين التحليل والفحص لبنية الخطاب المعاصر حول هذه المسألة يجد أنه لا يكاد يخرج عن هذا المعنىٰ الثاني، فمفهوم تطبيق

الحدود الشرعية قد اختزل والتهم مفهوم تطبيق الشريعة أو كاد، فلا يتحدثون عن تطبيق الشريعة إلا ويريدون به تطبيق الحدود الشرعية، وقد بقي الجدل فيه يدور رحاه في عددٍ من الجوانب، وظل المعاصرون يخوضون فيه الحرب تلو الأخرىٰ، سواء في أصل تطبيقه أو في كيفيتها.

ومن أكثر الاتجاهات حضورًا في هذه المسألة الاتجاه الحداثي، والذي يستغل هذه المسألة لرمي المنهج السلفي بالتشدد بل بالإرهاب! كما فعل ذلك سيد القمني في حوارٍ أجراه معه موقع (الرصيف) قال فيه: (واليوم لم تعد العقوبات البدنية مجدية إطلاقًا، يعني ماذا يعني أن تقطع يد إنسان؟! هذا كان أيام زمان، أما الذي يقول به اليوم فيكون إرهابيًّا فورًا⁽¹⁾.

وتلك النظرة هي النظرة العامة للحدود من قبل الحداثيين، فإنهم يرون فيها همجية وشدة لا تتماشىٰ مع روح العصر، ويصورون الحدود وكأنها تقام في كل ثانية حتىٰ يصبح نصف المجتمع مقطوع اليد، والنصف الآخر مفقوء العين، أو مصلوم⁽²⁾ الأذن، أو مجدوع الأنف!⁽³⁾.

---

(١) انظر حوارًا أجراه موقع (الرصيف ٢٢) معه بعنوان: سيد القمني لرصيف: الإرهابيون يعبرون عن الإسلام، وعلىٰ المسلمين حل هذه المشكلة.

(٢) أي: مقطوع، وهي كلمة تستخدم غالبًا في قطع الأذن والأنف.

(٣) انظر كتاب: أين الخطأ؟ تصحيح مفاهيم ونظرة تجديد، لعبد الله العلايلي (ص: ٧٩-٨٠).

فالدعوة إلىٰ تطبيق الحدود في نظرهم دعوة إلىٰ الشدة، كما أنها غير ملائمة للمدنية المعاصرة، ويأتي هذا المقال لبيان أن الحدود الشرعية وإن كان المراد منه الزجر وهذا يقتضي حصول الشدة فيها، إلا أنها انطوت علىٰ أنواع من الرحمة الإلهية التي تحيط بالناس دائمًا وفي كل التشريعات، حتىٰ فيما ظاهرها الشدة والحزم كالحدود الشرعية، وقد يتعجب المرء كيف أن الرحمة تجتمع مع قطع اليد ورجم الزاني وجلد القاذف!

◆

۞ لله تعالى كمال الرحمة وكمال العدل أيضًا:

ولكن من يتأمل في النصوص الشرعية يجد أن الرحمة تكتنف كل التشريعات الإسلامية، فالله ذو الرحمة الواسعة المطلقة، والتي يقول عنها جل جلاله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فكل شيء في الوجود تسعه رحمة الله، ومن ذلك التشريعات التي يكلف بها العباد وتجب عليهم، فمن احتمىٰ بالشريعة انسكب علىٰ قلبه الاطمئنان، ولا يوجد مخلصٌ من بحور الشك والريبة إلا مرافئ الرحمة الإلهية.

والانطلاق من نصوص الرحمة الكلية مفيد في تقرير أن الحدود الشرعية لا يمكن أن تخرج عنها، وبناء عليه فإن الحدود الشرعية التي في ظاهرها شدة- لطبيعة غايتها- بين طياتها رحمة كامنة رحم الله بها

العباد، فالدعوة إلىٰ إلغاء الحدود الشرعية بحجة الشدة(١) دعوة فارغة من المضامين الصحيحة وكذلك الغايات الحميدة، وهي مصادمة للكتاب والسنة وسبيل المؤمنين، كما أنها منطلقة من نظر الإنسان القاصر الذي لا يعلم خبايا الأمور، ولا يستطيع أن يكشف أستار القدر، بل وعلمه وعقله محصوران ومتغيران حسب المعطيات التي يتناولها وينظر بها، فمتىٰ ما انطلقنا في النظر إلىٰ الحدود من خلال رحمة الله الكلية بالعباد وحكمته البالغة عرفنا أن الحدود الشرعية عين الرحمة والرأفة بالخلق.

والرحمة التي تحيط بقضية الحدود الشرعية لا تخفىٰ إلا علىٰ من أعرض عنها، وعلىٰ من غشيت قلبه غشاوة الشبهات والشهوات، فإنها متعددةٌ كثيرة، منها ما تختص بالجاني نفسه، ومنها ما تختص بالمجتمع الذي يقيم فيه الجاني، ومن خلال هذين الجانبين سنتناول هذا الموضوع:

أما الجاني: فإن رحمة الله تغمره من كل جانب حتىٰ وهو جانٍ متعدٍّ.

◆

---

(١) مثل دعوة طارق رمضان الذي دعا المجتمع الدولي إلىٰ إيقاف العقوبات الجسدية في الإسلام، انظر في موقعه مقالًا بعنوان: (نداء دولي إلىٰ تعليق (موراتوريوم) العقوبات الجسدية).

الحدود الشرعية رحمة بالجاني:

ويمكن معرفة رحمة الله به من خلال المسارات الآتية:

أولًا: رحمته به قبل إقامة الحد عليه، وهذا له صورٌ عديدة منها:

(١) درء الحدود بالشبهات: فالشريعة الإسلامية السمحة غير متعطشة لإقامة الحدود؛ لا قتل الأنفس، ولا قطع الأيدي، ولا جلد الأبشار، ولا غير ذلك من العقوبات، كما يصوره الحداثيون؛ ولذلك عمِلت علىٰ درء الحدود بالشبهات ما أمكن، وقد ورد في ذلك عدة نصوص نبوية، منها حديث أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «ادْفَعُوا الْحُدُودَ مَا وَجَدْتُمْ لَهُ مَدْفَعًا»(١).

وهذا الحديث وأمثاله يؤكد علىٰ أن الحدود تدفع بالشبهات؛ ولذلك نرىٰ ذلك في التطبيق العملي للنبي ﷺ، فإنه قد جاءه ماعز ﵁ مقرًّا علىٰ نفسه بالزنا، فأعرض عنه ﷺ، ولما ألح عليه بدأ يسأله: «أبِك جنون؟ ... لعلك قبَّلت أو غمزت أو نظرت»(٢)، وهي محاولات حقيقية من النبي ﷺ لدرء الحد عنه، ولم يكتف بسؤاله، بل أرسل إلىٰ قومه يسألهم كما عند مسلم من حديث بريدة: فأرسل

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٥٤٥)، وقد جاء هذا الحديث بعدة ألفاظ من طرق عديدة، وكلها لا تخلو من مقال.

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٢٤).

رسول الله ﷺ إلىٰ قومه، فقال: «أتعلمون بعقله بأسًا؟ تنكرون منه شيئًا؟» فقالوا: ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فيما نرىٰ(١). وكل هذه الضمانات وضعتها الشريعة رحمةً بالجاني، فمتىٰ لم يتأكد ويتيقن الحاكم من وقوع الجاني في الجريمة لم يجز له إقامة الحد عليه.

(٢) **الإعراض عن المعترف**، فإن للإمام أن يتولىٰ ويعرض عن الجاني؛ فلعله يتوب، وهذا أيضًا يؤكد علىٰ أن الشريعة الإسلامية لم تقصد الحدود لذاتها، وإنما للمصالح التي تترتب عليها، وفي هذا قصة ماعز رضي الله عنه والتي رواها البخاري عن جابر: أن رجلًا من أسلم أتىٰ النبي ﷺ وهو في المسجد، فقال: إنه قد زنىٰ، فأعرض عنه، فتنحىٰ لشقه الذي أعرض، فشهد علىٰ نفسه أربع شهادات، فدعاه فقال: «**هل بك جنون؟ هل أحصنت؟**» قال: نعم، فأمر به أن يرجم بالمصلىٰ، فلما أذلقته الحجارة جمز(٢) حتىٰ أدرك بالحرة فقتل(٣).

وهذا يؤكد علىٰ أن الإمام يُعرِض عن المعترف؛ فلعله يرجع، ولعله ينكر، ولعله يتوب بينه وبين نفسه دون مجاهرة، فلا يحتاج الإمام إلىٰ إقامة الحد في مثل هذا، بل من رحمة الله أن الإنسان إذا

---

(١) صحيح مسلم (١٦٩٥).

(٢) أي: فلما أجهدته الحجارة وأقلقته أسرع هاربًا.

(٣) صحيح البخاري (٥٢٧٠).

اعترف بحدٍّ دون أن يسميه لا يقام عليه الحد، وهذا ما فعله النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أبو أمامة قال: بينما رسول الله ﷺ في المسجد، ونحن قعود معه، إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله، إني أصبت حدًّا فأقمه عليَّ، فسكت عنه رسول الله ﷺ، ثم أعاد فقال: يا رسول الله، إني أصبت حدًّا فأقمه عليَّ، فسكت عنه، وأقيمت الصلاة، فلما انصرف نبي الله ﷺ قال أبو أمامة: فاتبع الرجل رسول الله ﷺ حين انصرف، واتبعت رسول الله ﷺ أنظر ما يرد علىٰ الرجل، فلحق الرجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أصبت حدًّا فأقمه عليَّ، فقال له رسول الله ﷺ: «أرأيت حين خرجت من بيتك، أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء؟!» قال: بلىٰ يا رسول الله، قال: «ثم شهدت الصلاة معنا؟!» فقال: نعم يا رسول الله، قال: فقال له رسول الله ﷺ: «فإن الله قد غفر لك حدك»، أو قال: «ذنبك»(١)، فأي تشريع دنيوي بشري يمكنه أن يضاهي هذه الرحمة الموجودة في التشريع الرباني؟!

(٣) **الستر أولى من العقوبة**، فمن لم يجاهر بالمعصية التي هو عليها ولم يشعها بين الناس فإنه يستحب له أن يستتر ولا يتعرض للعقوبة، ويستحب لمن عرف من أخيه شيئًا أن يستر عليه ولا يرفعه للحاكم ما لم يعظم شره؛ ولذلك قال النبي ﷺ لهزال وهو الذي أمر ماعزًا بإتيان

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٦٥).

النبي ﷺ والاعتراف، فقال له ﷺ: «يا هَزَّال، لو سترته بردائك لكان خيرًا لك»⁽¹⁾، بل روىٰ الإمام مالك أن ماعزًا أتىٰ أبا بكر رضي الله عنه فأمره بالستر، ثم أتىٰ عمر رضي الله عنه فأمره بما أمره به أبو بكر، ثم كان ما كان من هزال⁽²⁾، فانظر إلىٰ حث النبي ﷺ علىٰ الاستتار وتطبيقات ذلك من الصحابة الكرام، وكل هذا من رحمة الله بعباده.

(٤) **التشديد في شروط الشهود**، فإن الإمام قبل أن يقرر الحد ينظر إلىٰ الشهود بالشروط الشرعية التي وردت، فإن لم تستوف الشروط لم يقم الحد، فلا تقبل شهادة كافر، ولا فاسق، ولا خصم للجاني، ثم في بعض الحدود كالرجم لا يُقبل إلا أربعة شهود، يذكرون الواقعة بالتفصيل مع تطابق أقوالهم، وهذا شرط عسير جدًّا، وكل ذلك درءًا للحد، وحفظًا لهذا الإنسان ما لم تتوفر كل الدواعي والشروط.

فانظر إلىٰ كل هذه الضمانات قبل تنفيذ الحد حتىٰ لا يقام إلا بما يحقق مصلحة الشرع من إقامة الحد، وانظر إلىٰ هذه الرحمات الكثيرة التي تحيط بالجاني حتىٰ قبل أن يقام عليه الحد.

◆

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٧٧)، والنسائي في الكبرىٰ (٧٢٣٤)، وأحمد (٢١٨٩٠)، والحاكم (٨٠٨٠)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه)، وفي حاشية المسند: (صحيح لغيره).

(٢) موطأ مالك (٢٣٧٥).

ثانيًا: رحمته به عند إقامة الحد:

إذا تم إقرار الحد علىٰ أحدٍ وأقيم عليه فإنه حتىٰ في هذه الحالة تأتي رحمات الله، فلا يريد الشارع الحكيم الإضرار بالعبد، وإنما يريد تحقيق المصالح خلف هذه الإقامة، وهناك صور عديدة لرحمة الله أثناء إقامة الحد، ومنها:

(١) اتقاء الوجه والْمَقَاتل، لما ورد في الصحيحين من تحريم ضرب الوجه عمومًا في حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه**»[1]، وإذا فتشت كتب الفقه الكثيرة تجد أنها تذكر جملة من الآداب عند إقامة الحدود وتنص علىٰ اتقاء الوجه وعدم ضرب المقاتل[2].

(٢) إقامة الحد بسوط لا جديد ولا خلق.

(٣) أن لا يكون الضرب مبرحًا، ولا يكون في شدة البرد أو الحر.

(٤) عدم إقامة الحد علىٰ الحامل والنفساء، فلا يجوز التعدي في إقامة الحدود حتىٰ لا يُضر بالصبي الذي لا ذنب له، وهذا قد وقع في زمن

---

[1] متفق عليه، أخرجه البخاري (٢٥٥٩)، ومسلم (٢٦١٢).

[2] انظر مثلًا: المغني لابن قدامه (١٢/ ٥٠٧-٥١١).

النبي ﷺ كما في حديث بريدة قال: جاءت الغامدية، فقالت: يا رسول الله، إني قد زنيت فطهرني، وإنه ردها، فلما كان الغد قالت: يا رسول الله، لِمَ تردني؟ لعلك أن تردني كما رددت ماعزًا، فوالله إني لحبلىٰ، قال: «إما لا فاذهبي حتىٰ تلدي»، فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال: «اذهبي فأرضعيه حتىٰ تفطميه»، فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبزٍ، فقالت: هذا- يا نبي الله- قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلىٰ رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلىٰ صدرها، وأمر الناس فرجموها(١).

فهذا هو الإسلام الذي يراعي دقة إقامة الحد بعد الضمانات التي طلبتها قبل إقامته، فلا يجر الحد إلىٰ غيره ممن لا ذنب له، فأي تشريع دنيوي يراعي المصالح المحيطة بالجاني إلا الشريعة الإسلامية؟!

◆

ثالثاً: بعد إقامة الحد:

الرحمة التي أحاطت بالإنسان قبل الحد واستمرت معه حتىٰ عند إقامته لا تتخلىٰ عنه بعد إقامة الحد، بل تظهر الرحمة بعد الإقامة أكثر مما كانت تظهر قبلها، ومن ذلك:

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٩٥).

(١) أن الحد كفارة للمحدود، فمن رحمة الله بالعبد أن جعل الحد الذي أقيم عليه في الدنيا كفارةً له من الذنب الذي ارتكبه، فلا تُجمع له عقوبتان، ويؤكد علىٰ ذلك حديث النبي ﷺ أنه قال: «ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به فهو كفارته، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله عليه، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه»(١)، قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ويستفاد من الحديث أن إقامة الحد كفارة للذنب ولو لم يتب المحدود، وهو قول الجمهور)(٢).

(٢) الاستغفار للجاني والدعاء له، فقد جيء إلىٰ النبي ﷺ بسارق فقطع يده ثم أمره بالاستغفار، فلما استغفر قال النبي ﷺ: «اللهم تب عليه»(٣)، فالجاني إن تاب ورجع لن يكون منبوذًا من المجتمع، بل هو أحد أفراده، ويدعىٰ له بما يؤلف قلبه في ذلك الموضع، وكل ذلك من رحمة الله.

(٣) النهي عن الدعاء عليه، وهو مبني علىٰ ما سبق، فإن الجاني إذا ارتكب ذنبًا ثم أقيم عليه الحد فإنه لا يجوز لعنه أو شتمه أو سبه، وقد نهىٰ النبي ﷺ عن لعن شارب الخمر الذي كان يؤتىٰ به كثيرًا فيُجلد، وقال:

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦٧٨٤)، ومسلم (١٧٠٩).

(٢) فتح الباري (١/ ٦٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٨٠)، وابن ماجه (٢٥٩٧)، وأحمد (٢٢٥٠٨). وفي حاشيته: (صحيح لغيره).

«لا تلعنوه؛ فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله»[١]، كما نهىٰ النبي ﷺ خالد بن الوليد عن سب الغامدية التي أقيم عليها الحد[٢].

فانظر إلىٰ كل هذه الرحمات التي بدأت مع الجاني من قبل إقامة الحد، ثم بقيت معه حتىٰ أقيم عليه، ثم توالت عليه كذلك بعد الإقامة، فهل بعد ذلك كله يأتي إنسان قاصر النظر قاصر العلم فيعترض علىٰ الله في تشريعاته؟!

◆

الحدود الشرعية والرحمة بالمجتمع:

أما الرحمة بالمجتمع فإنها تظهر جليًّا واضحًا، وتلك غاية الحد العظمىٰ، وتتجلىٰ رحمة الله بالمجتمع بتشريع الحدود من خلال الآتي:

(١) **حفظ الأمن والأمان في المجتمع المسلم**، فإن الحدود رادعة من أن ينزلق المجتمع في مهاوي الموبقات، فيصبح المجتمع كله مرتكبًا للجنايات؛ مما يؤدي إلىٰ انعدام الأمن والأمان، فشرع الله تلك الحدود حماية للفرد والمجتمع، فإننا لو تركنا الحدود لما يزعمونه من وجود القسوة فيها لأوقعنا أنفسنا والمجتمع كله في قسوة أشد، وهي الفوضىٰ واختلال الأمن، فالحداثي ينظر بنظر ضيق للحدود

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٩٥).

الشرعية حتىٰ يجعلها قسوة علىٰ الفرد الجاني، وينسىٰ المجتمع الذي يجب الحفاظ عليه وعلىٰ أمنه، ويخفىٰ عليه أن القسوة قد تكون مظهرًا من مظاهر الرحمة.

أرأيت لو أن طبيبًا يجري عملية جراحية، فجاء بمشرطه المرهف فقطع بِضعة من الجسم واستأصله، فالناظر لهذا الفعل فقط دون النظر إلىٰ الظروف المحيطة ولا إلىٰ الغاية سيقرر بأن هذا قسوة، لكن من يبتعد قليلًا ليرىٰ المشهد كاملًا دون اجتزاء سيدرك أن هذا رحمة من الطبيب، فإنه يستأصل هذا الجزء من الجسد حتىٰ لا يأتي علىٰ الجسد كله فيهلكه، وكذلك الحدود الشرعية فإن فيها قسوة محمودة، وهي في حقيقتها رحمة من الله بخلقه، يقول العز بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وربما كانت أسباب المصالح مفاسد، فيؤمر بها أو تباح، لا لكونها مفاسد، بل لكونها مؤدية إلىٰ مصالح، وذلك كقطع الأيدي المتآكلة حفظًا للأرواح، وكالمخاطرة بالأرواح في الجهاد، وكذلك العقوبات الشرعية كلها ليست مطلوبة لكونها مفاسد، بل لكون المصلحة هي المقصودة من شرعها كقطع السارق وقطع الطريق وقتل الجناة ورجم الزناة وجلدهم وتغريبهم، وكذلك التعزيرات، كل هذه مفاسد أوجبها الشرع لتحصيل ما رتب عليها من المصالح الحقيقة)⁽¹⁾.

---

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ١٢).

وقد ذكر الله هذا المعنىٰ بأفصح عبارة وأبلغ كلمة وأجمل خطاب، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فانظر كيف جعل الله مادة الموت هي مادة الحياة! ففي القصاص تلك الحياة الوادعة الآمنة التي نتفيأ بظلالها، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يُقتل، فتمنعه مخافة أن يقتل)(١)، فلما كان القصاص هدرًا لحياة إنسان بينت الشريعة أن ذلك الهدر ليس أمرًا عدميًا بل هو وجودي، فإنه هو الذي يسبب حياة المجتمع كله.

(٢) **حفظ الأمة من أن تهلك**، فقد بين النبي ﷺ أن من أسباب هلاك الأمم السابقة: تركُ إقامة الحدود، كما جاء في حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا حين شفع أسامة بن زيد في المرأة المخزومية، فقال له النبي ﷺ: «**أتشفع في حد من حدود الله؟!**» ثم قام فاختطب، ثم قال: «**إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد**»(٢)، فمن رحمة الله إرادته لهذه الأمة البقاء، فحذرها من أسباب هلاك الأمم السابقة لتجتنبها، ومن ذلك عدم إقامة الحدود، فليست دعوة من يدعو إلىٰ إلغائها إلا دعوة إلىٰ إلغاء الأمة كلها.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٩٢).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).

(٣) **حفظ أفراد المجتمع من التردي في هاوية الجرائم**، فإنهم إن رأوا من يقام عليه الحد وعرفوا أنه يُفعل بهم كما فعل بأولئك كان ذلك من أكثر الأسباب الرادعة عن ارتكاب الجرائم، فمنع الناس من الوقوع في الجرائم مقصد شرعي، وهو أيضًا مقصد تدعو إليه الدول المدنية الحديثة مع اختلاف طرق تطبيقها، فأي شيء- في نظر الحداثيين- يجعل تطبيقات الشريعة للحد من الجرائم غلوًّا وإرهابًا، وتطبيقات الغرب حضارةً ورقيًّا؟!

◆

۞ الخاتمة:

وأخيرًا: أين هذا المجتمع المسلم الذي نصفه مقطوع اليد، ونصفه مقطوع القدم ومجدوع الأنف؟! عدم وجود مثل هذه المجتمعات هو أكبر دليل علىٰ أن الحدود الشرعية ليست جريمة اجتماعية، وإنما رحمة إلهية، فإنها قد آتت ثمارها وحدت من وقوع كثير من الجرائم، فالمجتمع الإسلامي بفضل الله كان يرفل في ثوب الأمن والأمان مع تطبيق الحدود الشرعية كما أراد الله، بينما شعوب أخرىٰ كثيرة كان التوحش فيها ضاربًا أطنابه إلىٰ عهد قريب، وأما العقوبات الوضعية اليوم فليست رادعة، وفيها قدر كبير من الهدر المالي والنفسي، وليس هذا المقال مجال التفصيل فيها.

فهذه هي رحمة الله بعباده في الحدود الشرعية، تحيط بها من كل جانب، ويراها المتأمل المتبصر، أما من ينظر بعين المادة فحسب، ويفكر بتفكير المصلحة الآنية، فإنه يرىٰ فيها قسوة وشدة تتنافىٰ مع روح العصر، وينسىٰ أو يتناسىٰ أن التشريعات التي شرعها البشر بدلًا عن تشريعات الله والتي يدعون إليها لا تحقق إلا جزءًا من المصلحة، بينما فيها مضار أكبر، وهي ترجعهم إلىٰ ما فروا منه من الشدة المزعومة، فالرحمة كل الرحمة في تشريعات الله العليم بكل شيء، والحكيم في كل شيء، والذي وسعت رحمته كل شيء.

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا(١).

◆

---

(١) إعداد: إبراهيم محمد صديق.

الفِهْرِس

المحتويات .... الصفحة

مُقَدِّمَة ٥

(١) من تَقْنِيَّات الحَدَاثَةِ الجُمُودُ وَالرَّجْعِيَّة ٨

۞ الغرب بين الجمود الكنسي والتيه العلماني ٨

۞ مقولة غوستاف لوبون عن الطغيان الكنسي ١٠

۞ نتوءات التحرر والتيه العلماني ١١

۞ الحداثيُّون العرب وعباءة الحداثة الضيقة ١٣

۞ أركون والجمود والرجعية ١٣

۞ أركون: النص القرآني لم يعتمد نهائيًا إلا في القرن السابع!! ١٩

۞ الجابري والجمود والرجعية ٢٢

۞ هل الطعن في العلماء اختراع حداثي؟ ٢٤

۞ الخاتمة ٢٧

(٢) من تَقْنِيَاتِ الحَدَاثَةِ النَّظَّارةُ المُحَدَّبَة ٢٩

۞ تمهيد ٣٠

۞ الطعن والتشويه للعلماء سنة يهودية ٣١

۞ تقنية النَّظَّارةِ المُحَدَّبَةِ ٣٤

- أركون والنَّظَّارةُ المُحَدَّبَةُ والطعن في العلم وأهله ٣٥
- جولد زيهر وتقنية النَّظَّارة المُحَدَّبَة........................... ٤٣
- النَّظَّارةُ المُحَدَّبَةُ تقنية المبتدعة وأعداء الإسلام منذ القدم ٤٥
- نصر حامد أبو زيد والنَّظَّارةُ المُحَدَّبَةُ...........................٤٦
- النَّظَّارةُ المُحَدَّبَةُ وأيديولوجية الدين ٥١
- الخاتمـة ٥٥

(٣) من تقنيات الحداثة حـرب المصطلحـات ٥٧
- توليد المصطلحات بين التجديد والتضليل ٥٩
- واقع التيار الحداثي في حرب المصطلحات ٦٦
- أمثلة من كتابات أركون ٦٧
- أمثلة من كتابات الجابري ٧٦
- أمثلة من كتابات أبو زيد.. ٧٨
- أمثلة من كتابات تيزيني.. ٧٩
- الخاتمة:.. ٨٤

(٤) من تقنيات الحداثة نَقضُ الغَـزْل ٨٥
- من تناقضات العشماوي.. ٨٦
- من تناقضات حسن حنفي ٩٠

(٥) من تقنيات الحداثة السهـام الطـائشـة ٩٤
- أمثلة ونماذج ٩٦
- الخاتمـة ١١٣

(٦) من تقنيات الحداثة توظيف المخرجات البدعية ١١٤

۞ تمهيد.. ١١٦

۞ نماذج وشواهد لتوظيف الأقوال البدعية ١١٧

أوّلًا: مع الشيعة ودعوىٰ تحريف القرآن ١١٧

ثانيًا: مع المعتزلة والقول بخلق القرآن ١٢٠

ثالثًا: في حجية السنة والمعيار الحديثيّ (علم مصطلح الحديث والجرح والتعديل) ١٢٧

رابعًا: في عدالة الصحابة ١٣٥

خامسًا: في حجية الإجماع ١٣٧

۞ الخاتمة ١٣٩

(٧) بَيْنَ الأَسْمَاءِ الإِلَهِيَّةِ وَالأَسماء الْحَدَاثِيَّةِ لِلقُرآنِ الكَرِيم...... ١٤١

۞ كانت ولا زالت طعناتٌ طَائِشَةٌ وَبَائِسَةٌ......................... ١٤١

۞ أسماء القرآن الربانية ١٤٣

القرآن.. ١٤٤

۞ دلالات اسم (القرآن) ١٤٧

الكتاب... ١٤٨

۞ دلالات اسم (الكتاب)... ١٥٢

الفرقان ١٥٢

۞ دلالات اسم (الفرقان)... ١٥٦

التنزيل ١٥٧

۞ دلالات اسم (التنزيل) ١٦١

الذكر.. ١٦١

۞ دلالات اسم (الذكر).. ١٦٤

۞ أسماء القرآن مصطفاة بعناية ١٦٤

۞ أسماء القرآن الحداثية ١٦٦

۞ الخطاب النبوي ١٦٧

۞ المدونة الرسمية المغلقة ١٧٧

۞ الظاهرة القرآنية أو الحدث القرآني ١٨٤

۞ الخاتمة ١٨٨

(٨) عقلنةُ النص (اعتراضُ الصحابة على بعض الأحاديث وتوظيف الحداثيين) ١٩٠

۞ تمهيد ١٩٠

۞ القراءة الحداثية للنصوص الشرعية ١٩٣

۞ الحديث الأول ١٩٧

۞ الحديث الثاني ٢٠٠

۞ الحديث الثالث ٢٠٢

۞ تعظيم الصحابة للسنة ٢٠٥

۞ ومما يرد به علىٰ هذه الدعوىٰ ٢٠٩

(٩) الحُدُودُ الشَّرْعِيَّة بَيْنَ الـوَحْيِ والـحَـدَاثَــةِ ٢١٣
۞ المراد بتطبيق الشريعة ٢١٣
۞ لله تعالىٰ كمال الرحمة وكمال العدل أيضًا ٢١٥
۞ الحدود الشرعية رحمة بالجاني ٢١٧
أولًا: رحمته به قبل إقامة الحد عليه، وهذا له صورٌ عديدة منها: ٢١٧
ثانيًا: رحمته به عند إقامة الحد: ٢٢١
ثالثًا: بعد إقامة الحد ٢٢٢
۞ الحدود الشرعية والرحمة بالمجتمع ٢٢٤
۞ الخاتمة ٢٢٧
الفهرس ٢٢٩

تم بحمد الله